ليلى انحايلة

يهود أسفي خلال القرن 16م



2015

ليلى انحايلة

يهود أسفي

خلال القرن 16

2015

منشورات جمعية البحث والتوثيق والنشر

الكتاب:

يهود آسفي خلال القرن 16

المؤلفة: ليلى انحايلة

الإيداع القانوني: 2014 MO 2805

ردمك: 978 – 9954 –34 – 143 - 8

الطباعة والنشر

مطابع الرباط نت



Av. Hassan II Cité A. Manar n° 6/3 - Rabat
05 37 20 46 32 - 06 61 20 37 76
imprimerierabatnet@gmail.com

مقدمة عامة:

لقد عاشت بعض الأقليات في المغرب ومنذ فترات تاريخية سابقة، داخل عدد من المدن العتيقة التي لا تزال شاهدة على ذلك، واحتفظ لنا تاريخ المغرب ببعض ما تركت، في حين اندثر أغلبه أو بالأحرى اختفى.

ومن بين أبرز الأقليات التي نجد لها بصمة حاضرة في مختلف مراحل تاريخ المغرب، الفئة اليهودية التي أثرت وتأثرت بمجريات الأحداث داخل وخارج المغرب على حد سواء، مما جعلها مثارا للعديد من الدراسات والأبحاث الأكاديمية، التي ساهمت في التعريف بهذه الفئة وبكل مميزاتها.

لقد شكلت هذه الفئة عن طريق احتكاكها بالمجتمع المغربي، نسيجا مختلطا -إن صح التعبير- ينهل من الثقافتين: اليهودية والإسلامية، الامرالذي أفرز بنيات فكرية معينة، ميزت المدن المحتضنة لها عن غيرها، كما هو الحال بالنسبة لمدينة آسفي موضوع الدراسة في هذا العمل.

شهدت هذه المدينة وبصفة خاصة خلال الفترة الحديثة من تاريخها حضورا يهوديا مهما، نظرا للظرفية العامة التي دفعت فئة عريضة من اليهود إلى النزوح إلى بعض المدن المغربية وخاصة الساحلية، كما هو الحال بالنسبة لآسفي وذلك ما سنتطرق له بالتفصيل في المحور الخاص بالأصول الإثنية ليهود مدينة آسفي.

إلا أن ما يميز في الحقيقة المدينة عن غيرها هو كونها لم تكن ذات صيت واسع قبل الفترة المذكورة، كما هو الحال بالنسبة للمدن السلطانية (فاس، مراكش ...) على سبيل الذكر لا الحصر، أو المدن العتيقة، وبالتالي حتى الإرث المكتوب الذي يسمح بالتعرف على تاريخها، يمكن القول أنه مبتور.

إن المتأمل لهذه المعطيات يلاحظ صعوبة في ضبط قدم الوجود اليهودي بالمدينة، نظرا للضبابية التي تحيط بالموضوع من جهة، اضافة الى كون هذه المدينة لم تعرف رواجا تجاريا بنفس القدر

الذي عرفته طيلة التواجد اليهودي من جهة اخرى، حيث لم تحظ فيما سبق بنفس الفرصة مثل احتضان كل تلك الانشطة الاقتصادية -القطبية التي كانت تلعبها داخل المجال ان صح التعبير - وانعكاس الدينامية الاقتصادية على المجالات الاخرى السياسية والثقافية والاجتماعية بشكل خاص) [1] .

هذا ما يجعلنا نتساءل حول طبيعة العلاقة التي ربطت هذه الفئة اليهودية بالمدينة وبالاحتلال البرتغالي في أن واحد، إذ لم يكن مجرد استقرار عادي لفئة داخل نسيج اجتماعي له سماته المميزة. وذلك ما يدفعنا أيضا إلى إثارة مسألة ارتباط هذه الفئة بالاقتصاد ككل، خاصة التجارة، ولا ننفي ارتباطها بمجالات أخرى كالمجال السياسي والدبلوماسي. وإذا كانت هذه الفئة في مدن أخرى قد عاشت في ظل أدوار محدودة- إن جاز التعبير- فإن يهود آسفي اضطلعوا بادوار بارزة في الشؤون الاقتصادية والسياسية والديبلوماسية .

اختلف يهود هذه المدينة - وهم في الغالب كانوا من "الميغوراشيم" (اليهود النازحون) - عن "التوباشيم" الذين كانوا يتمركزون بالمدن العتيقة (اليهود الاصليين)، بوضعهم الاجتماعي وبظروف استقرارهم "الاضطرارية" داخل المراكزوالمدن المغربية .

فقد جلب "الميغوراشيم" معهم الخبرات والمعارف التي اكتسبوها في شتى المجالات داخل المجتمعات والدول الطاردة لهم، وقد تميزت هذه المعارف بتنوعها وحداثتها مما ساهم في تقلدهم لأهم الادوار الاقتصادية والسياسية خلال هذه الفترة المدروسة [2]، إضافة الى كون المدينة أصبحت في هذه الفترة بالذات بوابة

---

[1] اجتمعت لمدينة اسفي في تلك الفترة الاسباب التي جعلتها تلعب ادورا عدة منها ما هو سياسي محلي ودولي، ومنها ما هو اجتماعي وايضا ما يرتبط بالموقع الجغرافي .

[2] هذا لا يعني ان كل اليهود اشتغلو بنفس الادوار بل منهم من شغل - نظرا للظرفية العامة - مهنا لم يشتغل بها المغاربة لانها تدخل في اطار "دوني" يمس في ذهنية المغربي بكرامة الانسان وخاصة المسلم (مفهوم الطهارة والوضوء ...) مثل تنظيف المطامير.

المغرب البحرية، وميناء العاصمة السلطانية مراكش ومن أهم المراكز البرتغالية بالمغرب أنذاك، مع الإشارة إلى ان الإشعاع الذي عرفته المدينة سيتراجع بانتقال الميناء إلى الصويرة مما جعل العنصر اليهودي يسعى إلى تتبع الأنشطة المرافقة له، وبالتالي ستدخل المدينة فصولا أخرى من الجمود الاقتصادي، مما سينعكس على كل المجالات فيما بعد .

ومما ينبغي الإشارة إلى أهميته أن هذه الفئة قد نجحت في الحفاظ على العلاقة بالطرفين (المغاربة – البرتغاليين) على الرغم من تعارض المصالح بينهما، بل وكان حضورها في أحيان كثيرة إجباريا للوصول إلى حلول نهائية لبعض القضايا العالقة وهذا من جهة ثالثة معطى أخر يميزهم عن باقي اليهود في المدن الأخرى .

والجدير بالذكر أن الفترة الزمنية (القرن 16) قد اكتست أهمية بالغة في هذا العمل ،نظرا للحيثيات التي ميزت هذا القرن عن سائر الفترات التاريخية بالمغرب، فمجمل الظروف التي ساهمت في بلورة مجريات أحداثه المحلية و"الدولية" - (الاكتشافات الجغرافية - الطرد الجماعي لليهود -- محاكم التفتيش- الاحتلال البرتغالي والإسباني للثغور المغربية – نهاية دولة وبداية أخرى بالمغرب ....)- تجعل المهتم بهذا القرن يسجل نوعا من الترابط في التحليل الذي يساهم بدوره في تقريب فهم الاحداث التاريخية التي جرت بالمنطقة.

ساهم الاحتلال البرتغالي في تغيير معالم المدينة الخارجية على مستوى العمران خاصة العسكري (قصر البحر....) وعلى مستوى االدينامية الإجتماعية من قبيل التغيرات التي طرأت على بنية المجتمع، وتخص الاختلاط الاثني(النصارى، واليهود) بالمجتمع الاسلامي، والاجتماعي من ناحية العلاقات التي كانت تربط كل هذه الاطراف فيما بينها والثقافي ايضا وان كان من الصعب رصده فهو بطيء. ومما لاشك فيه ان كل هذه التغيرات التي طرأت على المدينة وعلى ساكنتها ،ستكون لها انعكاسات على ذهنية المغربي و على نمط عيشه على كافة المستويات.

وبشكل عام فإن التفاعلات الحاصلة في الشؤون الداخلية للمدينة، وحتى للمجالات البعيدة والقريبة المحيطة بها، والوثيرة السريعة التي جرت بها الأحداث ،تشير إلى كون هذا القرن كانت له بصمة خاصة في تاريخ المدينة .

وما يزيد هذا القرن تميزا من ناحية الدراسة كون جل الأحداث الحاسمة والبارزة في تاريخ المدينة ستجري بين بدايته ونهايته و لن تستمر بعد ذلك إلا انعكاسات ما جرى مدة يسيرة من الزمن، ستطوى معها صفحة من صفحات التاريخ الدينامي- الفاعل لهذه المدينة الساحلية .

تضمن العمل ايضا دراسة الشقين السياسي والاقتصادي، علما أن الغاية في البداية كانت تسليط الضوء على حياة هذه الأقلية داخل المدينة، بمختلف مكوناتها نظرا للفترة التي تم اختيارها والتي تسمح بالفعل، بدراسة وازنة وقيمة، لولا المشكل الذي تطرحه المادة المصدرية، كون الواقع يعبر عن أشياء تسكت عنها المصادر، نظرا لطبيعتها (عبارة عن وثائق رسمية: مراسلات ....)، او لقلتها او اختفائها .

فوجود مقبرتين تعودان للفترة الحديثة خاصتين باليهود، ووجود ضريح كبير ومشهور في المدينة يسمى: ب"ضريح أولاد بن زميرو... "، بالاضافة الى احتكار اليهود لأغلب الحرف والصنائع والشؤون الدبلوماسية بين البرتغال والمغرب، وكون المدينة من نموذج المدن الاستثنائية التي لم تعرف وجود ملاح داخلها، على الرغم من كثرة عدد اليهود بها، كل هذا يجعل المضطلع على هذا العمل يرمي بثقل المسؤولية على المادة المصدرية، التي لا تسعف إلى حد كبير الدارس لهذا الموضوع في الإفصاح عما جرى من أحداث، والتي تجعل عمل الباحث صعبا إلى حد بعيد .

ونظرا إلى إكراهات المادة المصدرية، كان الإعتماد بالأساس على المصادر الدفينة لتاريخ المغرب الأرشيف البرتغالي، والتي تعتبر وبحق بابا كبيرا يلج عبره الباحثون والمهتمون أفاقا رحبة،

يعانقون فيه ضالتهم التي لم يجدوا إليها سبيلا في أغلب المادة المصدرية المتوفرة لديهم (كتب الإخباريين..) .

هذه المصادر التي تنقسم إلى أقسام كبرى تبعا للأرشيف التابع هو الآخر لدولة من الدول الآتية: إسبانيا - فرنسا - إنجلترا – هولندا -- البرتغال، ويضم كل أرشيف عددا ضخما من الوثائق المجمعة في أجزاء فلكل أرشيف حوالي خمس أو ست أجزاء وفي كل جزء حوالي 200 إلى 700 صفحة.

هذه الأرقام تبين حجم المادة المتوفرة والانعكاس الإيجابي لذلك على البحث التاريخي بالمغرب بصفة عامة، إذ منحت هذه المادة الفرصة لعدد هائل من الأبحاث، لترى النور بفعل الزخم المعلوماتي الذي تتوفر عليه، على الرغم من محدودية المواضيع المعالجة من طرف الرسائل التي تتضمنها، فهي لا تخرج عن الإطار السياسي - الدبلوماسي - الاقتصادي، نظرا لطبيعتها فهي عبارة عن رسائل وتقارير ربطت إحدى الدول الأنفة الذكر بالمغرب في فترة من الفترتين السعدية أو العلوية .

وحينما نذكر طبيعتها وهي عبارة عن رسائل تم تبادلها بين دولتين، فإننا نستحضر قضية أو مسألة الرسمية التي تميزها ، وما لها من دور في التقيد بمواضيع بعينها عكس الأنواع الأخرى من الرسائل مثلا، التي تلامس في محتواها المجتمع، عن طريق رصد مختلف الظواهر به، لذلك نجدهاغنية بالمعطيات الاجتماعية مما حتم علينا الاشتغال على مواضيع بعينها .

وبالرجوع إلى المصادر الدفينة أو الغميسة كما يصطلح عليها، فهي مكتوبة في الأصل أو موجودة بلغة أرشيف البلاد التي سبقت الإشارة إليها، إلا أنه نظرا لصعوبة الإلمام بأغلب لغاتها، فقد وضع تلخيص لفحوى الرسالة أو التقرير، باللغة الفرنسية، الشيء الذي يسمح للباحثين مبدئيا بالاضطلاع على مضامين الرسائل، دون أن يعفوا من ضرورة التوفر على لغة الأرشيف المراد دراسته، حتى تكون دراستهم دقيقة؛ إذ تفرض طبيعة هذه المصادر، التوفر على اللغة البرتغالية بالنسبة لهذا الأرشيف الغني وفي حاجة لإتقان اللغة

العبرية ايضا وهي لغة هذه الفئة من المجتمع، مما يجعله (أي العمل) منفتحا في المستقبل على العديد من المعطيات التي قد تضيفها مصادر بلغات أخرى.

وقد جاء اختياري للأرشيف البرتغالي من منطلق ملاءمته لطبيعة الموضوع وللمجال على حد سواء وحتى للفترة؛ إذ يضم هذا الأرشيف خمسة أجزاء، و يتوفر على معلومات قيمة حول موضوع يهود أسفي، ما لا يوفره أي أرشيف آخر، كما يمنحنا معلومات خاصة يمكننا القول أنها لم ترد في أي مادة مصدرية أخرى غيره نظرا لخصوصيتها - حسب ما توصلنا إليه - .

بلغ مجمل الرسائل التي تمت دراستها ثلاثون رسالة، دون أخذ الرسائل التي تكرر موضوعها في الحسبان، وتنحصر ما بين سنتي 1509 و 1542. تنقسم إلى قسمين كبيرين: قسم خاص بالجانب السياسي، وقسم آخر بالجانب الاقتصادي، هذا وتجدون في الفهرس جدولا خاصا بالرسائل مصنفة حسب المواضيع .

ولا ينحصر الحديث في هذا البحث حول المصادر الرئيسية فقط، بل ينبغي الإشارة إلى المصادر الأخرى ككتب الإخباريين مثلا على قلتها وإن كانت المعطيات المتوفرة بها قليلة إلا أنها في غالب الأحيان مفيدة حيث نجد على سبيل المثال: مارمول كاربخال **"إفريقيا"** والحسن الوزان **"وصف إفريقا"** وديغوو دي طوريس **"تاريخ الشرفاء"**

أما فيما يخص الدراسات، فقد ركزت أغلبها في حديثها عن اليهود المغاربة على المدن المغربية العتيقة أو الكبرى، نظرا لما توفره هذه الأخيرة من إمكانيات تجعل العديد من الأبحاث منكبة على دراسة جزئيات دقيقة [1] في مدن بعينها، في حين تبقى أخرى دون دراسة، وهذه المعيقات هي نتاج لما ذكر آنفا ومن أبرز الدراسات التي تمت الاستفادة منها في هذا الموضوع نجد:

---

[1] هنا نشير إلى ما عثر عليه من دراسات داخل مجلة هسبيريس -تامودا، حول الزفاف وأغاني الزفاف بكل التفاصيل وحول أشكال أو الرسوم التي كان يعتمدها اليهود في الحلويات وحول الوشم الذي كان يضعه السجناء اليهود داخل السجون المغربية، إلا أنها و للإشارة فقط دراسات أجنبية

المنصوري (عثمان)، التجارة بالمغرب في القرن السادس عشر/ أنطونا (أرمان)، جهة عبدة / الزعفراني (حاييم)، ألف سنة من حياة اليهود بالمغرب/ باكوري(محمد)، اليهود والمخزن في عهد الدولة السعدية/ بوشرب(أحمد)، وثائق محاكم التفتيش، مصدر من مصادر تاريخ الثقافة والعقليات بالمغرب خلال القرن السادس عشر/ بوشرب (أحمد)، دكالة والإستعمار البرتغالي إلى سنة إخلاء آسفي وأزمور/ ندوة، تاريخ إقليم آسفي من الحقبة القديمة إلى الفترة المعاصرة.

كانت هذه بعض الدراسات المهمة التي تم اعتمادها في هذا البحث قصد إغنائه وإن كانت لا تحيط بشكل كامل بعناصر موضوع الدراسة إلا أنها تسد فراغ النقص الحاصل بشكل إجمالي، إذ لابد من تحقيق تراكم معين للحصول على أرشيف مستقبلي يخدم الجيل اللاحق من الباحثين ويوفر عليهم عناء البحث من جديد.

اعتمادا على ما توافر من المعطيات، حاولنا تتبع مختلف مراحل اندماج هذه الفئة في المجتمع الأسفي، ومختلف الأدوار التي لعبتها على مختلف المستويات السياسية والإقتصادية والإجتماعية وما تركته من بصمات على مستوى الموروث التراثي للمدينة.

الفصل الأول:
الأصول والأوضاع

1- نبذة تاريخية حول مدينة آسفي

أ - طوبونيم المدينة

ب - تأسيس المدينة

ت - التطور التاريخي

2- الوضع السياسي بالمدينة خلال القرنين 15-16م

أ- الأوضاع العامة

ب- الصراعات الداخلية

3- الأصول الإثنية ليهود المدينة

1- نبذة تاريخية حول مدينة آسفي

أ- طوبونيم المدينة

يتوجب الحديث عن طوبونيما هذه المدينة، وجود توصيف جغرافي للمجال المدروس، إذ لابد من الإشارة في البداية إلى وجود إشكال في الاتفاق بين المؤرخين حول تحديد جغرافي واحد للمجال المدروس، حيث نجد الوزان على سبيل المثال يقول: "تبتدئ ناحية دكالة[1] من تانسيفت غربا وتنتهي على شاطئ المحيط شمالا وعند وادي العبيد جنوبا وأم الربيع غربا تمثل هذه الناحية مسيرة نحو أربعة أيام طولا ويومين عرضا ...." [2] .

لم يقدم الوزان في هذه الإشارة إلى المجال سوى حدوده الكبرى مما يترك بعض الغموض في حديثه عن المنطقة، إلا أنه يعطي إشارة إلى شساعة المساحة من خلال الحديث عن عدد الأيام التي يقطعها عابر هذه الناحية. إلا أنه يعطينا توصيفا صحيحا إلى حد معين (الحدود موجودة بالفعل لكنها في غير مكانها) .

فحينما يتحدث عن واد تانسيفت كحد من الجهة الغربية فلا ندري الوجهة التي قدم منها فعلا، أو أن الأمر يتعلق بخطأ وقع فيه علما أن الواد في الجنوب الشرقي للمدينة .

وبعيدا عن واد أم الربيع الذي وضعه في الجهة الغربية. في حين يوجد في الجهة الشمالية، وكذلك المحيط الاطلنتي الذي قال عنه إنه في الشمال وهوفي الحقيقة في الجهة الغربية فلم يتغير موقعه. إذ من ايجابيات التحديد الجغرافي الذي يكون بالمعالم الطبيعية كالأودية والأنهار والبحار أوالمحيطات هوثباتها في الغالب

---

[1] ناحية دكالة يقصد بها هنا الجهة فحديثه عن دكالة فيه ضمنيا حديث عن مدينة آسفي، اعتبارا للحدود التي حدّ بها المجال

[2] الوزان (الحسن)، وصف إفريقيا، الجزء الأول، ترجمة محمد حجي، الطبعة الثانية، 1983، ص 152

- لا توجد في الهامش أي إشارة إلى أن هناك خلطا بينا في حدود بلاد دكالة فشمالها في الواقع يحده نهر أم الربيع وجنوبها تانسيفت غربها المحيط الأطلسي لكن الحد الشرقي الفاصل بين دكالة وتادلة أنذاك غير واضح وربما كان هوالملتقى بين أم الربيع وواد العبيد

في الأماكن التي كانت عليها، إلا بفعل تغيرات تجري على مدار ملايين السنين .

كما انه من المحتمل أن يكون توصيفه الجغرافي للمنطقة خاضعا لقواعد من نوع آخر تتلاءم وطبيعة التكوين باعتباره جغرافيا، اوتنسجم طبيعة المقاربة التي تبناها .

في حين يقول مارمول: "تقع [1] على شاطئ المحيط في طرف إقليم دكالة (المقصود الجنوب) ولها أسوار متينة عليها سبعة وثمانون برجا ودائرتها ألف وثلاثمئة وسبعون مقياسا زراعيا وفي إتجاه الغرب يوجد قصر مرتفع قليلا يطل على جرف صغير فيه صخور كثيرة ....." [2]

وبالتالي يمكننا القول بأن المعلومات التي قدمها لنا مارمول أكثر دقة من المعلومات التي قدمها الوزان، لكنه لم يفصل كما فصل الوزان، ويقصد بالقصر "قصر البحر " البناية المتواجدة على البحر وتعود للفترة البرتغالية .

في انتظار ما تسفرعنه في المستقبل الأبحاث الأركيولوجية أوالوثائق التاريخية والتي تدعم أوتفند أي طرح كان، لابد من التنويه بأهمية هذه المصادر في كتابة تاريخ المدن في ظل غياب المادة المصدرية وغياب التاريخ المكتوب اعتبارا لثقافة المجتمع التي لا تخرج عن إطارها الشفاهي.

أما بخصوص التسمية التي تشوبها هي الأخرى شوائب التناقض الحاصل بين مختلف الروايات ولا يمكن المرور على مسألة التسمية دون الإشارة إلى مسألة تأثير اللغة الأمازيغية في الطوبونيم وفي أشكاله، إذ من الممكن أن يكون اللفظ البربري (أسفو) والذي يعني الضوء بضم الفاء قد حرّف في الإستعمال إلى الكسر فنطق مكسورا هوالإسم الحقيقي للمدينة.

---

[1] المدينة : أسفي

[2] كاربخال، (مارمول)، إفريقا، ترجمة محمد حجي، محمد زنيبر، محمد الأخضر، أحمد التوفيق، أحمد بن جلون، الجزء الثاني، دار النشر للمعرفة ، ص 71

فلا يقدم لنا مثلا "ياقوت الحموي" في القرن السابع الهجري في كتابه "معجم البلدان " أي تأصيل لغوي للكلمة أولاشتقاقها بل اكتفى بذكر: آسفي بفتحتين وكسر الفاء، بلدة على شاطئ البحر المحيط بأقصى المغرب [1] ولا نجد في هذه الرواية ما يعطي أي إشارة إلى أصلها العربي أوالأمازيغي ولا عن سبب التسمية .

أما بالنسبة للإدريسي الذي أورد رواية مميزة عن التسمية خصها بمجموعة من الفتية الذين سماهم بالمغررين وقد قدر عددهم بالثمانية، وكانوا قد اتفقوا على ركوب البحر وأعدوا له عدته فإذا بالظروف الطبيعية تجري بعكس ما رغب به هؤلاء فتاهوا في البحر إلى أن استقروا بالمدينة على ساحل البحر ولما عرفوا المسافة الحقيقية التي تفصلهم عن بلدهم وهي مسيرة شهرين قال زعيمهم وا أسفي فسمي المكان بأسفي . [2]

لا نلمس في هذه الرواية أي ارتباط بالواقع، كما لا تستند هذه الرواية على أي محدد، حيث تظل اغلب المعطيات الواردة فيها موضع شك فلا ندري مصيرهم، اذا كانوا قد تاهوا في البحر أوأنهم استقروا في موضع معين، ولا ندري حقيقة نقطة انطلاقهم أمن مدينة أسفي الى وجهة أخرى أم العكس ؟ .

كما نجد لدى أرمان أنطونا : أن لفظة "أسفا " قد استعملت من أجل تعيين المركز السكاني ذاته، بالإضافة إلى وجود إتجاه آخر يسعى إلى إثبات الأصل السامي لكلمة أسفي وذلك بالقول بأن مصدرها من الكلمة العبرية "أسيفا" والتي تعني (جمعية) وهي نفس اللفظة التي تنطق لدى اليهود الأسيويين ب"أسيفي" [3]

---

[1] الحموي (ياقوت)، معجم البلدان، دار صادر، بيروت، 1979 الجزء الأول، ص 180

[2] الإدريسي (الشريف)، نزهة المشتاق في اختراق الأفاق، ص 138

[3] أنطونا(أرمان)، جهة عبدة، ترجمة علال الركوك /محمد بن الشيخ، الطبعة الأولى، ص 29

كما نجد الكلمة وردت بصيغة مرسى (صافيم) çafim أوبالأحرى (سافيم) Safim [1]، حيث يمكن القول ولوبشكل نسبي بوجود علاقة على الاقل بين المرسى الطبيعي الذي يعود الى فترات سابقة وبين التسمية .

ويفيد البكري بأن اسم آسفي مشتق من الكلمة البربرية "أسيف" التي تعني مجرى الماء المؤقت وقد ثبت فعلا وجود وادي يخترق المدينة يعرف بوادي "الشعبة".[2]

وبما أن البكري رجع إلى الأصل الأمازيغي للكلمة، على اعتبار التمازج الحاصل بين العربية والأمازيغية في العديد من المناطق وبما انها تنتمي لجدر واحد بمعنى انها تضم تقريبا نفس الحروف ولها سند في الواقع، وفي الغالب ما يكون المنطلق في التسمية له جذور ترتبط بما هو طبيعي فمن المرجح أن تكون رواية البكري الأقرب إلى الصواب أوإلى الواقع.

ب تأسيس المدينة

تعتبر أسفي من أعرق المدن التاريخية نشأة، وقد اختلف الباحثون والمؤرخون في ذلك حيث نجد الحميري يخبرنا عن نشأتها بقوله: "نزغ الشيطان بين بني حام وبني سام فوقعت بينهم مناوشات وحروب كانت الدائرة فيها لسام وبنيه، وكان آخر أمر حام أن هرب إلى ناحية مصر وتفرق بنوه ومضى على وجهه يؤم المغرب حتى إنتهى إلى السوس الأقصى[3] إلى موضع يعرف اليوم بأسفي .[4]

يبتعد الحموي في حديثه عن تأسيس المدينة عن السياقات القريبة لبروزها ويرجع الأمر إلى قصة سام وحام الشيء الذي

---

[1] Brill (E.J) ; Encyclopédie de l'islam; nouvelle edition; t:I; A-B ; Paris ; 1960 ; p : 709

[2] البكري(أبي عبيد الله)المسالك و الممالك، طبعة دوسلان، 1957 ص 86

[3] يظهر هنا عدم ضبط الحميري للمجال اذ جعل اسفي داخل مجال السوس الاقصى . فاين تبتدأ حدود هذا المجال و اين تنتهي ؟

[4] الصنهاجي الحميري(محمد بن عبد المنعم)، الروض المعطار في خير الأقطار، تحقيق : إحسان عباس، طبعة لبنان، 1984، ص 54

يغوص بنا أكثر في الجانب الأسطوري، والذي يستند في شق منه على الواقع بينما تبقى جل الأحداث من نسج المخيال الشعبي لجماعة معينة .

يرى ابن خلدون أنها مصمودية - بربرية التأسيس حيث يقول عنها :

"المصامدة أكثر القبائل البربرية وأوفرها من بطون برغواطة وعمارة جبل أهل درن ولم تزل مواطنهم بالمغرب الأقصى منذ الأحقاب المتطاولة وكان المتقدم فيهم قبل الإسلام وصدره برغواطة من بين المصامدة في بسائط تامسنا وريف البحر المحيط من سلا، أزمور، أنفى، أسفي .." [1]

يورد ابن خلدون في هذا الوصف، أثناء حديثه عن المصامدة ذكر مدينة أسفي على اعتبار أنهم كانوا يقطنون بها، أي أنهم ساكنتها الأصلية فهويرجع إلى الفترة البرغواطية في حديثه، لكن لا يمكن الجزم بأنها مصمودية التأسيس، فحجم الأدلة المقدمة غير مقنع ومن الممكن أن يكون انتقالهم إليها تم تحت ظرفية معينة لا تمت للتأسيس بصلة .

أما مارمول فيورد كونها قرطاجية التأسيس حيث يقول: "يعتقد بعضهم أن هذه المدينة التي يسميها الأفارقة أسفي والبرتغاليون أسافي، إحدى المدن التي شيدها "حانون" قائد القرطاجيين في ليبيا بأمر من مجلس الشيوخ وسميت من أجل ذلك : ليبي- فينيقية، ولذلك فإنها قد أسست قديما وبناها الأهلون على ما يقال ..." [2]

يستند ما قاله مارمول من جهة على سند حقيقي (رحلة حانون)، وزيارته للمغرب كما يدري المضطلعون بالتاريخ القديم، لكن ما يثير الشك هوأنه نسب تشييد المدينة له، إذ من المعروف أن حانون قد ادعى أنه أسس عددا من المدن بليبيا (المغرب) تصل إلى 300

---

[1] ابن خلدون(عبد الرحمان)، تاريخ ابن خلدون، بيروت، 1992، الجزء السادس، ص 265

[2] كاربخال (مارمول)، إفريقيا، م .س ،ص 71

مدينة، وقد شكك الباحثون في هذا الرقم الكبير إلا أنه لا ننكر انه أسس مراكز لكن أغلبها بالشمال، ولم يكن من المعتاد أن يتجاوز الرحالة حدود شالة في زيارتهم للمغرب نظرا للظروف التي ترجع إلى تلك الفترة، كما إنه من الممكن أن يكون حانون قد وصل إلى جزيرة "موكادور " أي مرّ على المدينة .

- لا يمكن تأكيد رواية مارمول حول حانون و لا تفنيدها الا في ظل معطيات جديدة .

أما الحسن الوزان فيقول أنها إفريقية التأسيس: أسفي بناها الأفارقة الأقدمون على شاطئ البحر المحيط .[1] إلا أن هذه الاشارة تبقى عامة، تنسب التأسيس للأفارقة لكننا لا ندري من هم بالتدقيق من جهة ولا ندري سنة التأسيس فكلمة الأقدمون فيها إحالة إلى القدم التاريخي للمدينة لكنها معطيات عامة تحتاج الى الكثير من التدقيق ومن الأبحاث الاركيولوجية .

وعلى الرغم من إشارة إبن عذاري المراكشي إلى وصول عقبة بن نافع الجنوب المغربي بقوله "وسار عقبة بن نافع حتى بلغ البحر المحيط ...." فعلى الرغم من ذلك تظل الإشارة ضعيفة وغير محددة للمكان [2]

كذلك الشأن بالنسبة لإبن خلدون حيث يقول: " وسار عقبة وفتح وغنم وسبى وأثخن فيهم وانتهى إلى السوس ووقف على البحر المحيط وقفل راجعا ..." [3]

أما الناصري فيورد الاسم بالتخصيص حيث يقول: " ثم عطف على ساحل البحر المحيط الغربي فانتهى إلى بلاد أسفي وأدخل قوائم فرسه في البحر ووقف ساعة ثم قال لأصحابه....." [4]

---

[1] الوزان (الحسن)، وصف إفريقيا، الرباط، 1980، الجزء الأول، ص 116

[2] إبن عذاري(المراكشي)، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، بيروت، 1948، ص 27

[3] إبن خلدون (عبد الرحمن)، تاريخ إبن خلدون، بيروت، 1992، الجزء الثالث، ص 13

[4] الناصري (أحمد)، الإستقصا، الدار البيضاء، 1954، الجزء الأول، ص 82

نخلص إلى القول وبعد كل ما تم تقديمه، أنه من المرجح وعلى الرغم من عدم كفئية الأدلة المقدمة أن تكون روايتي ابن عذاري وابن خلدون الأقرب إلى الصواب وإن كان من الصعب الاقتناع بأي من الروايات المقدمة في انتظار ظهور الأدلة التي من شأنها دحض اوتأكيد كل ما قيل .

ت – التطور التاريخي

وردت مدينة أسفي لدى أبي عبيد الله البكري كإحدى أهم المراسي من الناحية التجارية حيث يقول عنها : "وتسير السفن من ساحل نول إلى وادي سوس ثلاثة أيام ثم منه إلى مرسى أمكدول وهي مرسى مشتى ....ثم إلى مرسى كوز وهورباط يعمره الصالحون وهوساحل أغمات ثم إلى مرسى أسفي " [1]

فمرسى أسفي كان مشهورا في فترة زيارة البكري له، بل كان يعرف رواجا تجاريا مهما جعله يصنف في مصاف المراسي التي تتم فيها المبادلات التجارية الخارجية .

وهذا ما يؤكده حتى الإدريسي فقد قال عنها في نزهة المشتاق:" ومرسى أسفي كان فيما سلف آخر مرسى تصل إليه المراكب، أما الآن فهي تجوزه بأكثر من أربعة مجاز، أسفي عليها عمارات وبشر كثيرمن البربر والمراكب تحمل منها أوساقها وقت السفر " [2]

وقد اتفق كل من الادريسي والبكري في كون أسفي كانت آخر مرسى، إلا أن الادريسي أضاف أنه أصبحت هناك مراسي أخرى بعد في قوله " أما الآن فهي تجوزه بأكثر من أربعة مجاز."

ويشير إلى ساكنتها وهم من البربر وإلى حجم المبادلات التي تتم بها والى مكانتها فتوفر عدد كبير من العمارات دليل على أنها مدينة كبيرة من جهة ذات علاقات على مستوى الداخل والخارج من جهة أخرى

---

[1] البكري (أبو عبيد الله)، المغرب في ذكر بلاد إفريقيا والمغرب، م.س، ص 96
[2] الإدريسي (الشريف)، نزهة المشتاق في إختراق الآفاق، م. س ، ص 92

ويضيف الناصري عن تاريخ مدينة أسفي في الفترة الإدريسية من تاريخ المغرب حيث يشير إلى أنه: " وبعد وفاة المولى إدريس الثاني تولى إبنه محمد القاسم وقسم البلاد على إخوته، أصبحت منطقة أغمات وبلاد نفيس وبلاد المصامدة بما فيها منطقة أسفي وبلاد لمطا والسوس الأقصى تحت نفوذ الأمير عبد الله بن إدريس [1]

هنا يورد الناصري هذه الإشارة السياسية وإلى كون المدينة كانت تحت النفوذ الادريسي، كما توجد إشارة أخرى إلى أنها كانت تابعة للمصامدة كما أشار لذلك ابن خلدون فيما قبل .

وبعد ضعف الدولة الإدريسية ظهرت الدولة المرابطية بالمنطقة وكان ظهور البرغواطيين أيضا وهذا ما أشار إليه ابن خلدون بقوله : كانت مواطن برغواطة تمتد بين المصامدة في بسائط تامسنا وريف البحر من سلا وأزمور، أنفى، اسفي .." [2]

وقد خضعت المدينة للنفوذ البرغواطي في إحدى فتراتها بسبب الاصطدام الذي كان بين البرغواطيين وبين الدولة المرابطية ولم يتم القضاء على هذا المد البرغواطي إلا في عهد الدولة الموحدية إلا أنه عرف تراجعا في مناطق نفوذه فلم يعد بعد ذلك يمتد على المنطقة .

وتزامنا مع قوة الدولة المرابطية تراجع دور مرسى كوز[3] لصالح ميناء أسفي وهذا ما أشار إليه الحميري بقوله: " ان مرسى أسفي في أقصى المغرب وهوآخر مرسى تبلغه المراكب من عند الأندلس إلى ناحية القبلة وليس بعده للمراكب مذهب ." [4]

كما برزت الدولة الموحدية في منتصف القرن السادس الهجري ودخلت أسفي في طاعتها سنة 540 ه، وقد سورت المدينة [5]في هذه الفترة واستمرت في تأدية نفس الدور وكانت فترة "يعقوب المنصور " أزهى فترات الدولة

---

[1] نفسه، الجزء السادس، ص 172

[2] إبن خلدون (عبد الرحمن)، تاريخ بن خلدون، م .س ، الجزء السادس، ص 245

[3] من المراسي الصغيرة التي اشتهرت بنشاطها والتي كانت تصدر منها مدينة مراكش بضائعها وسلعها قبل ظهور مرسى أسفي

[4] الحميري (محمد)، الرروض المعطار في خبر الأقطار، مكتبة لبنان، 1984، ص 57

[5] وفي ذلك إشارة الى كون المدينة لم تكن مسورة في الفترة الموحدية

كما يظهر في قول الناصري: "عرفت الدولة الموحدية أيام المنصور أيام دعة وأمن ورخاء ورفاهية وحصّن البلاد وبنى المارستانات .." [1]

يظهر من خلال ما توفر من النزر اليسير حول تاريخ مدينة أسفي أن الفترة الموحدية كانت فترة متميزة فالقيام بتسوير المدينة وتأسيس العديد من المنشآت خاصة مع الازدهار الذي عرفه العهد الموحدي، حيث حظيت المدينة باهتمام وعناية خاصين ميزت هذه الفترة .

في نهاية القرن السادس الهجري دخلت الدولة الموحدية طور الانهيار بعد وفاة يعقوب المنصور فأدى ذلك إلى ظهور الحركات الصوفية بمختلف المناطق حيث ظهرت بأسفي حركة أبي محمد صالح وإمتد زمانيا من نهاية القرن السادس إلى نهاية القرن الثامن[2] وقد تملك متصوفة المدينة زمام الأمور، وكانت لهم فاعلية داخل المجتمع وفي عدة قضايا على اختلافها

أما عن الفترة المرينية[3] فابن الخطيب يخبرنا عن أسفي وعن ما عرفته من إهتمام حيث زارها سنة 761 ه /1360 م..........[4] فقد شيدت بها أيضا عدة مؤسسات علمية وطبية (مارستانات) ودينية .

إلا أن غياب المعطيات المتعلقة بتاريخ هذه المدينة لعدة أسباب ثم التطرق اليها فيما قبل يجعل من الصعب الحصول على سلسلة منسجمة من الأحداث التي من شأنها أن توضح التطور التاريخي للمدينة بشكل عام .

---

[1] الناصري، الإستقصا، الجزء الثاني، م .س . ص 198

[2] الكانوني، أسفي وما إليه قيما وحديثا، ص 98

[3] سنكتفي بالتوقف عند الفترة المرينية نظرا لخصوصية البحث أي لعدم حاجتنا للحديث عن الفترات اللاحقة، فستتم الاشارة اليها ضمنيا في باقي المحاور

[4] إبن الخطيب (لسان الدين)، نفاضة الجراب في علالة الإغتراب، المغرب، 1985، ص 71

2- الوضع السياسي بالمدينة خلال القرنين 15-16م

أ- الأوضاع العامة

عرفت مدينة أسفي قبل سقوطها في يد البرتغاليين رواجا تجاريا، لكن وكما سبق الذكر أدت الإضطرابات السياسية إلى اندلاع حروب أهلية بين الزعامات المحلية. مما جعلها فريسة سهلة للبرتغاليين[1] لما إستنجدوا بها .[2]

ولم تكن مدينة أسفي هي المدينة الوحيدة التي رضخت للاحتلال البرتغالي، فقد تظافرت عدة عوامل جعلت المغرب في عهد الدولة الوطاسية، يصل إلى مستوى من الضعف جعلها محط أطماع الإيبيريين (البرتغال). [3].

وبعدما تم الإستيلاء على ثغور المغرب الشمالية من قبل المسيحيين، اتجه مد آخر هذه المرة نحوالجنوب، حيث ظهرت دوافع ومغريات أخرى (قرب الميناء من العاصمة مراكش ومن السهل الخصب : دكالة عبدة ومن وادي ام الربيع الذي كانت يوفر سمك الشابل ......) جعلت هذه القوة تنهج سياسة القرب[4] من الموانئ الجنوبية، كأسفي وماسة هذا القرب الذي سيتحول إلى احتلال مباشر بعد ذلك .

تمثلت أهم مساعي "التقرب" في الرغبة في الإستفادة من التجارة معها، ومع باقي المدن الداخلية. وكذا في الحصول على حصة وافرة من الصيد والقمح.

---

[1] نتحدث هنا عن القواد المحليين وبفعل الصراع الذي كان بينهم فقد تدخل البرتغاليون بينهم بمنحهم امتيازات عن غيرهم مقابل تنازلات.

[2] مارمول كاربخال، إفريقيا، م . س، ص 71-72

[3] باكوري (محمد) اليهود والمخزن في عهد الدولة السعدية، أطروحة لنيل الدكتوراه في التاريخ، 2004، ص. 68.

[4] سياسة نهجتها الدولة البرتغالية قصد توطيد تواجدها بالمراسي المغربية بالجنوب وذلك بالدخول في علاقات تجارية مع العديد من الاطراف.

فقد تغيرت العلاقات ما بين البرتغال والمغرب قبل وفاة ألفونصو الخامس سنة 1481. كما ورد في رسالة الملك جون الثاني (jean II) إلى قواد وساكنة أسفي بتاريخ 16 أكتوبر 1488.[1]

وهذا ما يخبرنا الناصري به من خلال الحديث عن إستيلاء[2] البرتغاليين على أسفي إذ يقول: "كان البرتقال قد تشوفوا للإستيلاء على أسفي ....فزحفوا إليها وجرى بينهم وبين أهلها قتال شديد هلك فيه عدد كبير من البرتقال ... ثم طاولوها بالحصار حتى قل القوت عند أهل أسفي، وأشرفوا على الهلاك فحينئذ شارطوا البرتقال وأسلموها إليهم على الأمان "[3].

وفي هذه الرواية إشارات إلى الأوضاع التي كان يعيشها المغرب حيث تركت العديد من المدن لتواجه مصيرها وهذا ما حصل لمدينة أسفي إذ تعرضت للحصار إلى أن استسلم أهلها بمعنى كانت المواجهة ثنائية بسبب الاضطرابات .

ودخلت مدينة آسفي بمقتضى معاهدة أمضتها مع البرتغال في حمايتها قبل وفاة ألفونصو الخامس سنة 1481 وبعد مرور فترة طويلة على هذه المعاهدة عاد القائد أحمد بن علي[4] لطلب العمل بها (بالمدينة) .[5] فقد كان قائدا بها من قبل .

تخلى البرتغاليون عن سياسة الإحتلال المباشر لتأكدهم أنها لن تؤدي إلا إلى مضاعفة مشاكلهم المالية، وإلى إلحاق الضرر بمصالحهم التجارية بتلك الموانئ التي ثم تحويلها إلى مجرد ثكنات عسكرية كما تم في الشمال لا يستفاد منها، هكذا فطن البرتغاليون الى تبنى سياسة تهدف إلى التحكم غير المباشر في أهم الموانئ الجنوبية .

---

[1] S.I .H.M. Archive portugais ,tome I, P25

[2] تجدر الإشارة إلى ان اي دولة تريد احتلال أخرى لا تعلن عن ذلك صراحة وبالتالي تلعب السياسة دور القناع الذي تختفي وراءه النوايا الحقيقة للدولة المستعمرة تحت عدة درائع وهذه هي الحالة بالنسبة للبرتغال فلم تكن لتدخل بشكل مباشر في الصراع مع الساكنة.

[3] الناصري (أحمد)، الإستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، م.س، ص. 141.

[4] أحد قواد المدينة.

[5] S.I .H.M;op.cit ; t ; I ; p :693

نهج البرتغاليون للوصول إلى غايتهم خطة تروم الإعتماد على الهياكل السياسية بالأساس كركيزة وذلك بتقديم مجموعة من الإغراءات (امتيازات مالية – وعود بتحقيق مصالح شخصية ...)، وبذلك اعترفت آسفي بسلطة التاج البرتغالي عليها قبل 28 غشت 1481[1]، في حين كان الإحتلال الفعلي للمدينة سنة 1508، إلى جانب مراكز أخرى[2]

وقد زامن الغزوالإيبيري للثغور المغربية، وصول "الجالية" الأندلسية بمختلف مكوناتها (مسلمون مطرودون، يهود ..) : فانضموا إلى سلطة الوطاسيين التي سمحت لهم بالإستقرار ودعمتهم. وحاربوا معها السعديين وإستخدموا لمواجهة الإيبريين، فقد كلف السلطان الوطاسي عامله على تادلة "أحمد العطار" بالتفاوض مع برتغاليي أسفي.[3] نظرا للاعتبارات المعروفة (التمكن من اللغة ...)

وعلى الرغم من الاضطراب الذي كان تعيشه الدولة تمكنت أسرة بني فرحون من إستغلال الأوضاع وبسط سيطرتها داخل المدينة، وتعتبر هذه الاسرة من الاسر الغنية، وقد عرفت بعض الصراعات الداخلية ولكن تولى في النهاية تدبيرشؤون المدينة أحد أفرادها: أحمد بن علي الذي يدعى: "حمادوش"، في16 من أكتوبر 1488حيث قلده الملك البرتغالي جون الثاني قيادة أسفي .

وفي 1498 قررت الحكومة البرتغالية أن تعوض القائد أحمد الذي طعن في السن، بابن أخيه عبد الرحمان فقام نزاع بينهما وتصالحا وخطب أحمد في الجمهور يطلب منهم طاعته حسب رواية الوزان[4] .

أما رواية مارمول فتتحدث فيها عن قتل عبد الرحمان ل"حمادوش" وإستمالته الناس إلى أن أصبح عليهم أميرا سنة

---

[1] بوشرب (أحمد)، دراسات ووثائق عن الغزوالبرتغالي، ص. 181.
[2] S.I .H.M. Archive portugais ,tome I, P25
[3] ibid III; p: 382
[4] الوزان (الحسن)، وصف إفريقيا،م .س، ص 148 .

1500.[1] والملاحظ أن الفرق في الروايتين طال حتى السنوات فكل من الوزان ومارمول يتحدثان عن نفس الحدث بفرق سنتين .

ومن بين الشخصيات القيادية التي كانت تصبوإلى الحكم في المدينة يحي الزيات وقد أدى طرده من آسفي إلى رغبته في أن تسير الأمور لصالح البرتغاليين، وذلك لأنه ربط وصوله إلى السلطة بالتعاون معهم، فقد كان يسعى إلى الحصول على عفوهم سنة 1502. لم يكتف بذلك فقط بل قام بحشد موالين للبرتغال وذلك بالتحرك إلى المدينة الغربية التي كانت في صراع مع قائد أسفي، وتقديم النصح لأعيانها بالدخول تحت حماية الملك البرتغالي، [2] الا انه لم يفلح في الحصول على مبتغاه .

وكانت البرتغال في هذه الأونة تهيئ للاحتلال الفعلي حيث ظهر أسطول قادم من لشبونة كان الملك قد جهزه بجميع أنواع الأسلحة، وقطع المدفعية علاوة على خمسة آلاف من الجنود المشاة ومئتين من الفرسان. وصل قسم أمام آسفي يوم 24 ديسمبر 1507، ووصلت سفن أخرى أول يناير 1508، و"ربما" بقي الأسطول أمام أسفي حوالي ثلاثة أشهر لذلك تملك المغاربة الرعب وتركوا المدينة ملتجئين إلى جبال بني ماكر.

وعلى الرغم من إحتلال المدينة، فشل البرتغاليون في الحصول على عملاء أوفياء بتلك المراسي مع العلم أنها اعترفت بالسلطة البرتغالية.[3]

في حين تدحض رسالة مؤرخة ب 2 يوليوز 1509 بأسفي مرسلة من ساكنة المدينة إلى إمانويل الأول هذه المعلومات إذ يظهرالعكس حيث يوجد إحساس كبير بالولاء من لدن الطرف المرسل (لا ندري حقيقة الوضع هل الأمر يتعلق بالولاء أوبتسبيق

---

[1] مارمول (كاربخال)، 71-72،الحسن الوزان وصف إفريقيا، م.س، ص : 148

[2] **S.I .H.M.** Archive portugais .tome II; p: 278

[3] RICARD (k) ;le commerce de bérbérie et l'organisation économique de l'empire portugais : Etude sur l'histoire des portugais au Maroc : Coimbra ; 1954 ; p 98

-بوشرب (أحمد)، دراسات ووثائق عن الغزوالبرتغالي، م.س، ص. 181 .

المصلحة الشخصية، البحث عن الاغتناء والإعفاءات أواستسلاما للوضع الجديد وللظرفية وغير ذلك) نجد في مضمونها: "ونحن ما كرهنا عبد الرحمان إلا في حق الذي عصاك ولم يدخل تحت طاعتك، ولا رحنا حتى قتلناه وقلنا خرجنا من العذاب ودخلنا الجنة ....."[1]

ب- الصراعات الداخلية:

كانت المدينة وعلى مدار مسارها التاريخي تعيش رتابة - ان صح التعبير - كما هومعروف فلا توجد كتابات تاريخية توحي بحيوية تاريخ هذا المجال وبالانشطة التي كانت تمارس في هذه المدينة اوبالاحرى وقد ادت الأوضاع الجديدة بالمدينة، إلى خلق نزاعات بين عدد من الأطراف التي كانت ذات مكانة معينة فبعد أن حكم "عبد الرحمان المنحدر" من أسرة بني فرحون مدة طويلة يخبرنا مارمول أنه قتل بشكل مفاجئ حيث يقول: "بعد أن حكم طويلا قتل بدوره في وقت كان فيه أقل تفكيرا في الموت... وكان وراء ذلك علي بن وشمان ويحي أوتعفوفت بعد أن إتفقا على إزالته ودبروا له مكيدة."

تجدر الإشارة إلى أن القائد عبد الرحمان هوالذي كان ينوي القضاء على علي بن وشمان ويعزى الأمر إلى قضية تتعلق بكونه- حسب الكتابات- على علاقة بإبنته وقد وردت لدى الوزان بالتفصيل وعوض أن يقتل عبد الرحمان بن علي الذي تنبه لذلك عليا ابن وشمان ثم العكس .[2]

وقد أدى قتله إلى قيام جلبة في المدينة إلا أن الحاكمين الجديدين تحكما في الموقف، فبعد قتله "..صاحوا في المدينة بأنهم قتلوالطاغية، الذي أراد أن يفتك بهم ليتمتع بطغيانه أكثر، فوافق الشعب على عملهم وأصبحا حاكمي المدينة بصفتهما القائمين بتحريرها".[3] وتبين هذه الأحداث الهالة التي اكتسبها الدخول

---

[1] S.I .H.M. Archive portugais ,tome I ; pp 180 -188

[2] الوزان (الحسن)، وصف إفريقا، م .س، ص. 148 - 149 في الهامش.

[3] كاربخال (مارمول)، م .س، ص. 72-73.

البرتغالي إلى المدينة وما احدث من خلخلة وما أبان عنه من "بركماتية" في التعامل مع الفئة الحاكمة في مدينة أسفي في هاته الفترة

وقد حاول في إطار ربط العلاقات والحرص على الاستفادة علي بن وشمان بالذهاب لدى "دييغودا أزامبوجا" لإخباره بما جرى،حيث يخبر مارمول أنه أتاه بعد يومين وطلب منه باسم يحي واسمه اي علي أن يأتي مع بعض أصحابه لنصرتهم على أهل الميت أي عبد الرحمان، اذ لا بد لهم من الحماية خاصة في ظل الأوضاع المتوترة التي دخلت فيها المدينة وخوفا على نفسيهما من الخطر، واعدين إياه أن يكونا تابعين للملك فإقتنع الحاكم بهذه المبررات وذهب مع إثني عشر برتغاليا إلى أسفي .

ولما خشي دا أزامبوجا غدر المغاربة، بعدما رأى أن الأمور لا تسير حسب مشيئته، عاد مع علي وثلاثة من الوجهاء تاركا يحي عاملا على المدينة، بينما قدم علي والوجهاء الثلاثة على أنهم أتباع للملك.

ومن جملة ما وقع عليه الإتفاق بينهم أن عليا ومن معه سيهبون للبرتغاليين دار مطلة على البحر (قصر البحر حاليا) لحساب التجار المسيحيين وبرجا لأمنهم.

والذي يتضح من خلال هذا الفعل، هوالرغبة في الاستيلاء على النقاط الاستراتيجية والحساسة في المدينة، خاصة وأن البحر هوالعنصر الفاعل في مجريات كل هذه الاحداث، فلم يكن اعتباطا اختيار المدينة إلا لتوفرها على العناصر الكفيلة بضمان اكبر قدر ممكن من تحقيق للمصالح الخاصة والعامة للتواجد البرتغالي بالمغرب، بشكل عام وذلك من خلال العبور عبر المدينة، ويعتبر احتلالهم لهذه الدار المطلة على البحر بمثابة إجراء فعال تمكن من خلاله البرتغاليون من سد المنافذ على المغاربة ومراقبتها والتحكم في كل الأنشطة والتحركات .

هذا وتجدر الإشارة إلى أن إنطلاق كارسيا دي ميلو- كان قائدا لسفن الكرافيل البحري في المضيق – قبل وصول دا أزامبوجا،

بأمر من ملك البرتغال فوجد السكان مسلحين ولما وصل دا أزمبوجا سنة 1507 مع علي بن وشمان الراغب في تنفيذ وعده الرامي إلى إيجاد أتباع آخرين للعرش البرتغالي، وجد الرفض جوابه بعدما صرفه الفقهاء .[1]

أدت هذه المستجدات التي لم ترق البرتغاليين إلى عملهم على بث الريبة بين علي ويحي، وتم ذلك على مراحل كما هومعروف ووقع انه في سنة 1508 أرسل الملك "كونزالي ميندس دي سكوط" بأربع كرافيلات ليستولي على المدينة، لتكون البوابة التي سيلجون منها إلى مملكة مراكش .

حيث وصل كونزالي مع مائتين من الرماة وعدد من المتطوعين إلى أسفي، فوجد القائمين على الأوضاع خائفين من مناورات المغاربة، وإتفق معهم (اي كونزالي) على أنهم سيصرحون ليحي وعلي بأنه لابد من الإتفاق، تلافيا للتفرقة التي من شأنها تشتيت البرتغاليين بين الجهات ولتهدئة الأوضاع وذلك عبر عدة وسائل وسيتم ذلك بتقلد أحدهما حكم المدينة، تحت سلطة البرتغال، فكان كل منهما يؤثر صاحبه مرة لكن الأمر إنتهى بتولية يحي نظرا لعدة اعتبارت مرتبطة بعوامل داخلية منها مكانته داخل المجتمع قبل الدخول البرتغالي وأخرى خارجية مرتبطة بالأساس بمصلحة التاج البرتغالي بالدرجة الاولى والتي كان يخدمها تربع يحي على المنصب.[2]

أوعز دييغودا أزامبوجا بعد ذلك مباشرة - أي بعد التولية- إلى علي بضرورة تصفية يحي وسيتم ذلك بقتله في داره واعدا إياه أن يبقى عاملا بعده . بينما أمر يحي أن يفر في الليل ليلجأ إلى منزل للمسيحيين الذين كان يجهل كونهم شركاؤه في المؤامرة .

وهذا مايؤكد الطرح السابق والمتعلق بمصلحة الاستعمار البرتغالي من جهة، ومن جهة أخرى استغلال الأوضاع وضرب القوى المحلية بعضها ببعض .

---

[1] نفسه، ص.73-74 .
[2] مارمول، ص. 73-74 .

إلا أن الوزان يخالف مارمول الراي في كون دا أزامبوجا إنحاز ليحي، فهو يرى أنه إنحاز لعلي وأرسل يحي إلى لشبونة سنة 1507 والمهم هنا ليس النقاش حول من انحاز له هذا القائد البرتغالي بقدرما هوالحديث حول الطرق والوسائل التي تم بها الاستعمار وسواء انحاز دا ازامبوجا إلى يحي أوإلى علي فهم في نظر البرتغاليين في نفس المرتبة ومن نفس البيئة لا يتمايزون إلا بقربهم اوبعدهم عن العرش البرتغالي و عن ممثليه في المستعمرة .

ويضيف الوزان انه عندما رجع يحي من البرتغال ذهب علي بعد إحتلال أسفي ليقيم مع أهله على ضفاف وادي أم الربيع لكنه سجن في ماي 1514 من قبل الناصر أخوملك فاس[1] . وهذا راجع لعلاقة علي بالبرتغال .

ويعزى الإختلاف بين الروايتن إلى أن الحسن الوزان قد إستقى المعلومات مباشرة من علي وبالتالي فرواية الأحداث اختلفت بين هاذين المصدرين دون أن تتباين مع ما للاختلاف من أسباب أحيانا تكون موضوعية وأخرى ذاتية تضيع معها الحقيقة نسبيا أوبشكل كلي وهذا المعطى دائم الحضور في الكتابات التاريخية وهوما يؤدي أحيانا إلى الخروج بنتائج لا تلامس في الواقع الحقيقة التاريخية بشكل مباشر .

وتظهر كل هذه الأحداث بأن يحي كان يستحوذ على العلاقة مع البرتغاليين وخاصة بعد رحيل علي بن وشمان منافسه فقد ذهب يحي إلى "دييغودي ميراندا"، فخصص له إستقبالا حسنا وأواه ثمانية أيام ولم يكن ليتم ذلك إلا بتزكية من الملك البرتغالي .[2]

قام قائد الأسطول بإرسال يحي إلى ملك البرتغال، الذي جعل له إيرادا حسنا وأعطاه عشرين خادما، بعد ذلك أعاده إلى إفريقيا (المغرب) ليحكم البادية التابعة لأسفي لان القلاقل تصدر من البادية بالأساس ولا يعني الحكم انه يتحكم بزمام الأمور فكل ذلك إسكات لقائد سيخلف حرمانه إزعاجا للتواجد البرتغالي على أرض المدينة

---

[1] الحسن الوزان، وصف إفريقيا ص. 151، مارمول كاربخال، إفريقيا، ص. 74 .

[2] مارمول، ص. 74.

ما من شأنه عرقلة الطريق أمام الاستغلال المباشر، كما وأن القائد البرتغالي لا يعرف عادات هذا الشعب ولا الطريقة التي يجب أن يساس بها [1]

وقد مكث يحي بالبرتغال مدة 22 شهرا إبتداءا من آخر غشت 1514 [2] ولم يقرر الملك إرجاعه إلى آسفي إلا بعد موت القائد أتايد كما أنه وصل إلى هذه المدينة يوم 21 يوليوز 1516، - ولم يحصل يحي على كل هذه الامتيازات عبثا أوبسهولة إذ لا تمنح كل هذه الأعطيات إن صح التعبير إلا لمن عمل عليها واخلص في العمل كما توضح العديد من مجريات الأحداث التاريخية في فترات أخرى عن الاستعمار وعن آلياته والعلاقات في ظله - برتبة قائد على كل دكالة مع عدد من الامتيازات[3]

وقد منحه الملك البرتغالي لقب "قائد البادية "، كونه كان عارفا بالبلاد وقد أدى منذ ذلك الحين خدمات شتى رفقة الأعراب والبربر فلم يهزم الشرفاء وحدهم بل تغلب حتى على جنود مراكش وفاس (استخدام القوى المحلية لمواجهة السلطة الحاكمة عوض المواجهة المباشرة) .

كما قام يحي اوتعفوفت بدور جد مهم في نشر النفوذ البرتغالي في المنطقة وذلك لتحكمه في" عبدة "و"الغربية "ويظهر ذلك بشكل جلي في سنة 1517، حيث أخبر الملك البرتغالي أنه إذا ما رجع الملك الوطاسي إلى عاصمته فاس سيعمل على إرجاع الأمور إلى نصابها وذلك بقوله: "نتحزم مع هاذ العرب حتى نردهم لسفي بزز منهم " . [4]

وإن كانت حالة يحي اوتعفوفت حالة بارزة في التعامل مع المحتل البرتغالي إلا أن هناك حالات أخرى وإن تفاوتت درجة القرب أوالبعد من الاستعمار أدت خدمات جليلة للدولة البرتغالية في

---

[1] وصف الوزان الشعب بالجاهل. الحسن الوزان، وصف إفريقيا، م .س، ص. 150.

[2] في مارس من نفس السنة إلتقى الحسن الوزان يحي أوتعفوفت وهويجمع الضرائب فنصحه بالإبتعاد عن البرتغاليين . الحسن الوزان، إفريقيا، ص. 60.

[3] S .I.H.M.PORT. T . II .P : 6-17

[4] ibid. T . II .P : 155

المغرب ويتضح ذلك من خلال ما تضمنته رسالة مؤرخة ب11 ماي 1517 مبعوثة من إمانويل الأول إلى سفيره في روما "ميكايل دا سيلفا "وجود قواد مغاربة في خدمة الملك البرتغالي، يحاربون المغاربة غير الخاضعين، مثل حالة آسفي بالنسبة ليحي أوتعفوفت قائد الملك على بلاد دكالة .

كما تضمنت الرسالة طلبا بحصول يحي على الإمدادات حيث يقول: "منذ شهر يناير هزم يحي ملك مراكش مرتين - تشييدا بمنجزاته -، وينبغي إعطاء هذا المغربي الرماح والأسلحة الأخرى الضرورية للحرب التي يقوم بها لصالح البرتغال لذلك يطلب الملك البرتغالي من البابا أن يرخص بإعطاءه الأسلحة، وأنه لن يستعمل هذا الترخيص إلا لخدمة الله".[1]

وتوضح هذه الرسالة من جهة طبيعة العلاقة بين هذه الشخصية والعرش البرتغالي وطبيعة المكانة التي كان يحوزها في المجال إذا كانت تصرف له الأسلحة والأموال والأعطيات ومن جهة أخرى أنواع التحديات التي كانت تواجه السلطة الحاكمة فعوض مواجهة الاحتلال بشكل مباشر تجد الدولة نفسها في مواجهة عدوداخلي متمرس عارف بأحوال المجتمع والمجال .

وقد أثرت المصالح بشكل ملاحظ على الفاعلين في الحقل السياسي في المجال فعزم "دا أزمبوجا" على قطع العلاقات جهرا مع علي، فاستغرب علي تكبر البرتغاليين كونهم لازالوا خاضعين لسلطته ولا يستطيعون العيش بدونه فهوالذي كان يرسل لهم المؤن يوميا فأجابه دا أزامبوجا أنهم سيتغدون من دم المغاربة ومن لحمهم وهذه العبارة لوحدها تبين من جهة الطريقة التي كان ينظر بها هذا المحتل للمغاربة والتعالي الذي عومل به علي لما دخل يحي اوتعفوفت على الخط .[2]

كما أدت هذه الاضطرابات التي حصلت بين علي ودا أزامبوجا إلى بحث الأخير عن فرصة للنزاع فقاموا باستفزاز جزار

---

[1] S .I.H.M.PORT. T . I ;P : 85

[2] مارمول، م.س، ص. 74 -75.

مغربي، هذا الأخير صفع غلاما فقام هذا الأخير بقتله وسط الساحة، لما رأى المغاربة ذلك بادروا بالهجوم ووقعت الحرب بين الطرفين. ويذكر الحسن الوزان هذه القصة بالتفصيل وموت مائة رجل من المغاربة في ذلك الهجوم إلا أن إستماتة المغاربة جعلتهم يحاصرون الدار أياما عديدة أدى ذلك في نهاية المطاف بالمغاربة إلى طلب السلم من دا أزامبوجا[1].

وقد قام المغاربة بعد ذلك بتسليم المفاتيح الخاصة بقصر البحر والأبواب إلى القائد وصاروا أتباعا للملك البرتغالي . بينما لجأ علي إلى مدينة تاركة (على بعد عشرة فراسخ من أزمور) مع أهله وأقام بها و هكذا إستولى ملك البرتغال بشكل تام على مدينة آسفي .[2]

ولما إستولى البرتغاليون على آسفي أرسل إليها "نونيوفرنانديس دي أتايد" كحاكم مع جنوده من الفرسان والمشاة وكمية من السلاح والمدفعية والذخيرة الحربية فأخذ في الحين يشن الغارات في جميع الجهات وحصل على عدد من الأسرى والغنائم

بعد الحصار ونظرا للتفوق الحاصل بالنسبة للبرتغاليين على المغاربة، أذعن عدد من الأعراب والبربر للملك البرتغالي بينما فتك باللذين امتنعوا عن ذلك[3].

كان رد فعل المغاربة بعدما استنكفوا عن أداء الخراج للمسيحيين محاصرة المدينة بقيادة أكابر أعراب أزمور والغربية وكافة البربر المقيمين بتلك المناطق فلم يستسغ كل ساكنة المنطقة فكرة الاحتلال والاستغلال ما أدى بهم إلى الثورة على الأوضاع. فوصل عددهم خمسة آلاف فارس ومائة ألف راجل فطوق البربر مع قسم عرب أولاد سبيطة سنة 1510 المدينة ولا ندري حقيقة أن كانت بدافع شخصي أوبايعاز من السلطة الحاكمة في مراكش اوغير ذلك نظرا لتعقد الأوضاع ولكون المصادر لا تفصح عن ذلك

---

[1] مارمول، إفريقيا، م .س، ص 75، الوزان (الحسن) 150-151، لا يذكر الوزان مسألة خلاف علي مع دا أزامبوجا بل يرجع الحرب إلى توفر البرتغاليين على الأسلحة الكافية للهجوم والدفاع ومناسبة الموقف لذلك

[2] مارمول كاربخال، إفريقيا، م .س، ص 75.

[3] دييغودي طوريس، تاريخ الشرفاء، ص. 17.

وشرعوا في تحطيم السور، فقام الحاكم بإطلاع الملك البرتغالي بالأمر عن طريق التجار المسيحين.[1]

واستحضارا لأهداف الاستعمار وتمظهراته الاقتصادية والسياسية والثقافية في نفس السياق سيظهر الدور الفعال الذي لعبه التجار في القضايا السياسية في أكثر من موقف بعد ذلك، فالقضايا السياسية إرتبطت بشكل كبير بالقضايا التجارية أوالاقتصادية عموما كما جرت العادة في مجريات الأحداث التاريخية.

وتوضح رسالة من ساكنة آسفي إلى إمانويل الأول سنة 1509 في 2 من يوليوز، التبعية المطلقة- لأهل أسفي- للعرش البرتغالي وللدولة ككل :

" الحمد لله وحده .. ضيفنا ومولانا السلطان ضون منوال حفظه الله خدامك بل عبيدك الساكنين تحت علامك وطاعة الله وطاعتك في بلدتك بلدة أسفي هم يسلمون عليك ويقبلون يديك والأرض تحت قدميك..........نحن قادرون على أن ندخل السلطان مراكش ومولاي زيان من أزمور وكان بأسفي رجالا كانوا أهلا للشياخة ونحن يا مولانا إخترناك ورضيناك من دون هؤلاء...... ".[2]

كما يخبرونه بأنهم قبلوا دا أزامبوجا (الدا الزنبوج) حبا في الملك وطاعة له.

وإن كانت هذه الرسالة تطرح من الإشكالات ما تطرحه نظرا لحمولتها، الا أنها تعطي انطباعا عن طبيعة العلاقات السائدة آنذاك وحتى عن طبيعة الساكنة وان لم يكن القصد التعميم اوالخروج بقواعد، ولكنها تظهر الى حد معين الرغبة الكبيرة في الاستفادة اكبر قدر ممكن في إطار "العمالة " من مدخل ديني لتحقيق مصالح أومراكمة ثروة والحصول على السلطة الرمزية فلن يستفيد هؤلاء القواد أكثر مما ستستفيده الدولة البرتغالية على ارض المغرب .

---

[1] مارمول، م.س، ص. 76

[2] S .I.H.M.PORT. T . I;P : 181-182-183-184-185

وعلى الرغم من تورط يحي وعلي في مقتل عبد الرحمان إلا الساكنة التي بعثت للملك تصف علي بالغدار لأنه غدر عبد الرحمان ويحي بقولهم :

"ثم بعد ذلك ادخل علينا الغدار علي بن وشمان وقبيلة السراق بني ماجر الذين أكلوالبلد وأفسدوه ....علي بن وشمان اغدر عبد الرحمان واغدر صاحبه يحي واغدرك أنت يا مولانا ".[1]

والجلي هوعدم معرفة هذه الساكنة بحقيقة الأمور واستفادة البرتغاليين من ملائمة الأوضاع لهم فلم يعرفوا أن المستعمر كان يضرب هؤلاء الزعماء بعضهم ببعض وانه لم يعد عبد الرحمان صالحا لخدمته أوأنه لن يكون في نفس مستوى الخدمة التي سيقدمها يحي لهم وبالتالي وجب التخلص منه والغريب هونظرة الساكنة لهذا المستعمر باعتباره المنقذ والمصلح أدت إلى تكريس الأوضاع أكثر من تعجيلها بالقضاء على الاحتلال .

في سنة 1510 ونظرا للأوضاع المضطربة أرسل JOAO LOPES "جواولوبيز " إلى إمانويل الأول يخبره أن الرسائل التي يرسلها له لم تصله لأنه يتم إحتجاز أي شيء يمر بين أسفي وازمور .[2]

وفي نفس السنة نجد رسالة أخرى مؤرخة ب5 ديسمبر، من "نونيوفرنانديس دي أتايد" إلى الملك إمانويل يخبره فيها بحتمية محاصرة المدينة فقد إقتربت فرقة من مائة قاذفة من المدينة ووقع 50 فارسا في كمين ولم يتم إنقاذهم إلا بوصول "ألفاروا دي أتايد".

لقد أبانت الرسائل عن تباين في المواقف في صفوف المغاربة وهذه مسألة طبيعية ما بين الرغبة في الاندماج في الاستعمار نظرا لعدة عوامل وما بين الرفض والمقاومة مما من شانه أن يخلق ازدواجية - وهمية - .

---

[1] S .I.H.M.PORT. T . I;P : 186-187-188
[2] Ibid . T . I;P : 230

وفي 27 نونبر قام أولاد عمران وأولاد سبيطة والشياظمة بالزحف نحوأسفي وقد مكن وصول (JOAO LOPES DE MEQUA) جواولوبز دي ميكا، من تموين آسفي بالبارود والرصاص والأسلحة.[1]

في سنة 1511 وبعدما أخبر فيرناند بوجود خمسة وعشرين دوارا على بعد فرسخين من مدينة دكالة، أرسل أربعة فرسان مسيحيين لإستطلاعها، ثم عادوا إلى أسفي في نفس الليلة. فخرج فييرناند من المدينة في 450 فارسا و500 من الراجلين تاركا حراستها ل "نونيو كاطو".

خرج فيرناند وحاصر الدواوير، ولما أشرف عليها أمر ألفاري دي أتايد أو (دي أطايدي) ودليله لوبي بارييكا أن يتقدما إلى الأمام. تمت محاصرة المغاربة من جميع الجهات فقتل منهم 300 وأسر 567 ورجع البرتغاليون بكل تلك الغنائم إلى آسفي.[2]

إذا ما أخذنا في الاعتبار الإمكانيات التي كان يتوفر عليها البرتغاليون مقارنة بمعدات المغاربة وخصوصا الثوار بمعنى الذين لا يحضون باي دعم.

أدت كل تلك الخسائر التي لحقت المغاربة جراء الحصار، إلى توافد الراغبين في الدخول تحت طاعة البرتغاليين أكثر من ذي قبل ففي صباح الغد الذي تلى المواجهة، تقدم شيخ أعراب الغربية: عيسى بوبكر وغيره من القادة الذين كانوا ينتظرون فريناند ليسلموا عليه، و ليعرضوا أنفسهم كرعايا للملك. أصبحوا إذ ذاك يؤدون الخراج له واقتدى بهم مغاربة آخرون جاؤوا من كل الدواوير.[3]

عقب وفاة " دي أتايد" بعث ملك البرتغال حاكما لأسفي وهودم "ماسكريناس"، وبمجرد وصوله علم أن المغاربة المتحالفين وقد تكون المعلومات التي كان يخبره بها أبراهام بن زميروا عن نية أوتعفوفت الثورة على الملك صحيحة بحكم العلاقة التي كانت

[1] S .I.H.M.PORT. T . I ;P : 265

[2] دييغودي طوريس، تاريخ الشرفاء، م .س، ص. 17.

[3] م . ن ، ص 18-19

تجمعه اوتربطه بالبرتغاليين لم يعرف اذا كان اوتعفوفت قد عزم فعلا القيام بثورة ضدهم اولمجرد الادعاء لكي لا يتعرض للادى من طرف القبائل اوليكون قريبا منهم حتى يعرف ما يخططون له - قد ثاروا فحاول بجميع الوسائل أن يردهم إلى طاعة الملك، مؤكدا لهم أنهم لن يؤاخدوا بموت دي أتايد والفرسان المسيحيين، وقد نجح في ذلك بالفعل فرجع أهل الغربية وشوشاوة إلى الطاعة.[1]

وكان هذا العمل في صالح البرتغاليين إذ لم يكن بالإمكان إخبار الساكنة أوالقبائل بالإرادة الحقيقية للبرتغال حتى لا ينفروا منهم أويواجهوا بالمقاومة وعوض خسارة كل شيء حاول ماسكريناس إرجاع الأمر إلى نصابه .

ويخبر "ماسكاريناس" في رسالة بتاريخ 9 شتنبر 1517 الملك بأن الشريف هاجم القافلتين اللتين بعثهما يحي فرد هذا الأخير دون تردد، إذ هاجمه فغنم وقتل 12 فارسا مغربيا وأسر أحد قواده .[2] فمن جهة يخبر ماسكريناس الملك البرتغالي بكل ما يجري ومن جهة أخرى كأنه عين على يحي كما هوحال كل الحكام حيث يظهر رغم كل ذلك انه لم يكن يثق فيه كونه كان مغربيا ..

كما تبين رسالة أخرى مؤرخة ب 3 يناير 1511 من "نونيوكاطو" (NUNO GATO) إلى الملك إمانويل يعلمه فيها أن أسفي ساحة حرب منذ 23 دجنبر وأن دي أتايد خرج لمواجهة الغزاة(هذا المصطلح ودلالته في تعريف الآخر لدى البرتغاليين الذين هم ساكنة المدينة) الذين رفضوا المعركة كما قام كاطوبجرد دقيق للمواقع والأسلحة والقيادات في المدينة [3] حتى تشتمل التقارير التي ترفع الى الملك على أدق الحيثيات .

هذا ويشتكي نونيوفيرناندس دي أتايد في رسالة كتبها في 17 من مارس 1511 إلى إمانويل الأول فرار جزء من المحاربين بسبب قلة النقود وأن إستمرار الوضع على نفس الحال سيؤدي إلى

---

[1] نفسه، ص. 51 .

[2] S .I.H.M. PORT. T . II ;P : 168

[3] Ibid tome I . P 271

هجمة مؤكدة وهذا الأمر أدى في أكثر من موقف إلى الإضرار بمصالح البرتغاليين إذ يعتبر الإغراء المادي أهم عامل لجذب أواستمالة المحاربين من صفوف المغاربة، ويخبره أنه سيضاعف مجهوداته من أجل توفير التموين الضروري لأسفي (من خلال المحاصيل الزراعية)[1] مما سيؤدي بالساكنة الى المعاناة من الاستنزاف الحاصل من كل الجوانب من جهة الاستعمار (الارض) ومن جهة أخرى خيراتها وبقوة في فترات الازمة وذلك بالتعويض .

ولتوفير كل ذلك كان من الضروري القيام بعدة إجراءات الشيء الذي سيؤدي إلى إصطدام يحي بالإضافة إلى خلافه مع دي أتايد مع قبطان أسفي ماسكريناس نظرا لإختلافهما حول الطريقة التي يجب أن يتم بها تسيير المنطقة فقد كان يبحث عن الأمن والاستقرار للحفاظ على مكتسبات البرتغال وللحفاظ على مكانته ومنصبه فيما أراد ماسكريناس شن الحروب لتحقيق الغنى.[2] لا ندري حقيقة هل الاصطدام خلفه تنازع يحي وماسكريناس حول الطريقة؟ أوحول النتائج؟ أورغبة كل منهما في إبراز مدى ولائه للعرش البرتغالي عن طريق التنافس في طرق الحفاظ على المكتسبات البرتغالية؟ أوهووسيلة لتجنيب الساكنة المزيد من الحروب نظرا لانتمائه لها ؟

لم يرق قبيلة أولاد عمران وهي من قبائل المنطقة، ما كان يقوم به فيرناند إذ كان يمشي عكس مشيئتهم، حتى أنهم أخذوا يسيئون كثيرا إلى الذين قبلوا تبعيتهم للمسيحيين حتى إذا اضطر إلى الخروج عدة مرات من أسفي لشن الغارات عليهم، ولكنها إنتهت لصالحه فانضاف إلى ما ثم أسره عدد كثير منهم واضطروا إلى الرجوع إلى طاعة الملك من جديد.[3]

ويتضح أن قبائل أيت باعمران لم تحصد نتائج ايجابية من تعاملها مع البرتغال بل رضخت لسلطتها نظرا للضغوطات والاكراهات التي تعرضت لها في ظل كافة الأوضاع التي كان يعيشها المغرب .

---

[1] Ibid tome I . P297
[2] Ibid ; t ; II ; p : 135
[3] دييغو(دي طوريس)، تاريخ الشرفاء،م . س، 52.

في الوقت الذي إكتسب فيه الشرفاء شهرة بإحتلالهم أحد الحصون حيث إنضم إليهم عدد من الفقهاء، وقاموا بشن غارات على التخوم دون أن يحدثوا أي ضرر، مع أنه إنضمت إليهم طوائف أخرى من البربر والأعراب الذين لم يكن لهم رئيس[1]. وكل هذه الإجراءات تنم عن تحرك واضح تجاه العدوالمحتل وعن بداية المقاومة بشكل فعال وان كان غير منظم وغير مدعوم ومجهز بالشكل المطلوب إلا أنها وشأن أي مقاومة في البداية تكون بوسائل بسيطة قد تستمر بها اوقد تطورها فيما بعد .

وبالموازاة مع هذه الأحداث حشد يحي أوتعفوفت خمسة آلاف من المتحالفين، وقصد (الشرفاء هكذا وردت في المصادر الغميسة لا ندري من هم بالضبط ....) "في إطار رد الفعل " فأرسل في تلك الأثناء إلى "نونيو ماسكريناس" يطلب خمسمائة من حاملي الرماح بأسفي، وقطعتين من المدفعية لأنه كان يريد التوغل حتى يصل إلى مراكش، ليتغلب عليهم آنذاك لم تكن العلاقات قد توطدت بين يحي وبين "دم (وتعني تراتبية معينة) نونيو"، فحرض الكثير من خصوم القائد المغربي الحاكم البرتغالي على عدم تقديم أية مساعدة له .[2] مما يسمح بالدخول في مجموعة من التأويلات من بينها ان علاقة يحي بالعرش البرتغالي كانت جيدة حتى استفز ذلك الراغبين من المغاربة في ربط علاقات مع البرتغال، - فقاموا بتحريض هذا القائد او هومجرد ادعاء أومغالات في حق يحي اوتعفوفت ...-

من جهة أخرى فإن منصب يحي أوتعفوفت خلق له العديد من الأعداء، وهذه مسألة طبيعية سواء من الراغبين في الحصول على نفس الإمتيازات أومن الذين صنفوه ضمن الخونة سواء من المسلمين كما رأينا أومن اليهود كما سيظهر في مواضع أخرى. لكن الأساس هونقل الوقائع والأحداث وتبقى الموضوعية نسبية في ظل الخصائص البشرية للمؤرخ والتي لا يخرج عنها .

هذا وقد قام "فرنانديس دي أتايد" بإرسال رسالة إلى إمانويل الأول في 27 ديسمبر 1514 يخبره فيها بأن "الفارودي أتايد" قام بالبحث حول تصرفات يحي أوتعفوفت، وقد تمّ إرسال محضر

---

[1] نفسه، ص. 50.
[2] نفسه، ص. 52 .

للملك منذ ثمانية أيام مفاده أن هناك خلافات حادة بين أتايد وبين يحي، كما أوضح أن الفترة التي تواجد فيها يحي في البرتغال كانت فترة راحة وهدنة، بالنسبة للبلاد وفترة رخاء إقتصادي وعبر عنها ب (توسع الحرث) .[1]

وتؤكد رسالة "نونيوفيرنانديس" إنتصار البرتغاليين على الشريف في غياب اوتعفوفت بما معناه انهم قادرون على تحقيق انتصارات دون الاعتماد على يحي كسند لهذا الاحتلال، وفي 12 شتنبر 1514 حيث يخبره فيها أنه وجد صعوبات جمة، في اقتسام خمس الغنائم التي حصلوا عليها من الشريف، كما أخبر الخدام من عبدة والسجة، والغربية أتايد بعدم إرسال المسيحيين ما وراء مراكش، لأن سيد الجبل يتربص بهم.[2]

لم يكن الشريف وحده الذي يريد السيطرة على المدينة إذ لا يجب أن ننسى القوة الوطاسية فقد كانت تمثل شبحا بالنسبة لقبائل المنطقة إذ يجب البحث حول مسألة الولاية الوطاسية من إلى متى؟، وذلك ما تعبر عنه رسالة بعث بها أحد الدكاليين إلى شيوخ عبدة في يونيو 1517 لإشعارهم بدخول السلطات إلى المنطقة حيث ورد فيها الآتي :

"السلطان جا، هربوا للشريف، وكل ما شدكم فيه إعطوه ليه، لا تفرطوا فيه. أكان ما قبل عليكم الشريف هربوا للملى "النصر" ملى مراكش، أكان الناس أعطاوالخيل، إعطيوا الأولاد، أكان مونكم رفدوا بالأمان، إذا ما مونكم هربوا لبلاد تنجوفيها، ملى ببكر وملى بحسن وملى النصر وملى محمد الشريف طلعوا للفوق، وملى محمد خرج لزمر وأسف، وأنتم دبروا على أرواحكم."[3] وهذه الرسالة تبين من جهة مكانة هذا المرسل إذ كان على دراية بكل التطورات التي تجري في الساحة كما تبين نوعية العلاقة التي كانت تربط بين شيوخ عبدة ودكالة .

---

[1] S .I.II.M. PORT. T . II ;P : 667
[2] Ibid.;P 630-631
[3] Ibid. T . II .P : 95-106

كما ويظهر أن المنطقة ككل وقعت وسط مجموعة من القوى التي تتصارع حول السيطرة عليها من بينها زعامات محلية بالإضافة إلى ما تبقى من الدولة الوطاسية دون أن ننسى الدولة البرتغالية. مما جعل الساكنة تحتار أي طرف يجب أن تمنحه ولاءها وبذلك إختارت بعض الأطراف الجهة التي ترتاح في التعامل معها أوالتي تقتضي المصلحة أن تتعامل معها .

هذه الأطراف كلها كانت تسعى إلى إيجاد طريقة للتحكم في المجال مما خلق ردود أفعال متباينة لدى ساكنة المنطقة .

وبما ان الحديث عن الوضع السياسي بالمدينة اقتضى منا الحديث باستفاضة عن شخصية يحي أوتعفوفت باعتباره قائدا للمنطقة فمن بين المسائل التي يمكن القول انها تدل على" إستقلال" أسفي عن الوضع العام بالدولة المغربية، كونها خضعت لزعامات محلية في ظل الوضع أوالأوضاع التي كانت تعيشها حيث سن يحي قوانين تعتمد على الشرع، والعرف القبلي، يذكر فيها كل الجنايات (القتل، الجرح، السرقة، الشتم، الضرب، إنتهاك الحرمات، النميمة، الديون، الزنى، ضرب المرأة ...) وحدد العقوبات التي تلزم كل واحدة من هذه الجنايات .[1] وفي هذا تصريح بخصوصية المنطقة بالرغبة في خلق دستور أوقانون ينظم المجال ولا ينفك كل ما ذكر عن العلاقة بالبرتغاليين .

وقد ساهمت مجموع العوامل في تفاعلها مع بعضها البعض الى الرغبة في التعجيل بتنحية اونعفوفت .

حيث قامت قبيلة أولاد عمران بتدبير مقتل يحي أوتعفوفت على اعتبار علاقته المتوترة بهم، فإغتنموا فرصة ذهابه لتعزية صديق وكان برفقة ثلاثة شيوخ، فدخل عليهم شيخان من أولاد عمران وهم يتناولون طعام "العشاء" فاغتالاه بطعنات خنجر دون أن يستطيع من كانوا برفقته إغاثته على ما بذلوه من جهد، ففي نهاية المطاف قتلوا جميعا.

[1] Ibid. T . I ;P : 316-327

وهكذا وبمجرد موت يحي أسرع أولاد عمران "النهب" الدواوير التي كان يقيم بها خمسون مسيحيا وتأتي هذه الأحداث في إطار رد الفعل على الأحداث التي جرت لقبيلة أولاد عمران، فحملوا عليهم السلاح وانتزعوا منهم كل شئ وقتلوهم. لما بلغ الخبر ماسكريناس خرج للبحث عن "الخونة "وإقتفى أثرهم ولحقهم على بعد فرسخين من المدينة وهناك قاتلهم وهزمهم، حيث قتل 50 "أعرابيا " من الغربية، بينما سيق حوالي 650 أسيرا انتقاما لموت أوتعفوفت والخمسين مسيحيا .[1]

بذلك تكون ولاية أوتعفوفت على آسفي قد إمتدت من غشت 1507 إلى ما قبل 16 فبراير 1518 .[2] هذه الفترة التي يمكن القول عنها أنها تميزت عن سابقاتها وحتما سيظهر الفرق بعدها وقد مني البرتغال بهذه الوفاة من حيث لم يحتسبوا .

وبذلك كان موت أوتعفوفت فاجعة على البرتغاليين بأسفي لأنه لطالما خدم الملك بوفاء، هذا الأخير الذي أيقن بجسامة الخسارة، أخذ يدعم الوجود المسيحي في كل مرة بارسال أعداد مهمة باستمرار إلى المدينة. تغطية للفراغ الذي أخذ يتسع في المدينة في غياب الراس المنفذ.

وقد انعكست هذه الأوضاع على المنطقة حيث تقدم لنا مجاعة 1521 مثالا معبرا عن الوضعية الاجتماعية - السياسية التي سقطت فيها المدينة بشكل خاص وسهل دكالة -- عبدة بشكل عام، فقد أدى استنزاف خيرات المنطقة بالإضافة إلى الجفاف الذي ضربها إلى بيع المغاربة أبناءهم ونساءهم قبل بيع أنفسهم لتجارالرقيق البرتغاليين بأسفي بثمن زهيد.[3] إذ لم تمس التطورات السياسية قطاعا دون آخر ولم يكن لكل هذه التغيرات السياسية ان تمر دون أن تمس المجتمع .

---

[1] نفسه، ص. 51-52

[2] بوشرب (أحمد)، دكالة والإستعمار البرتغالي، دارالثقافة، الدار البيضاء، ط 1، 1984، ص. 220

[3] DE Torres ; relation de l'origine et succés des chérifs ; Paris ;1630 ;I ;P 194

في سنة 1529 بعد أن تخلص الشرفاء[1] من "دي أتايد وأوتعفوفت ولوبي باريكا "، وقد كتبوا إلى ملك مراكش وبعثوا إليه بهدية -عبارة عن أسرى مسيحيين- وأشياء أخرى معلنين أنهم مستعدين لخدمته ضد مسيحي آسفي. وهذه إشارة تبين تمكن الشرفاء بعد قضائهم على يحيى اوتعفوفت من التحكم في المجال وان التواجد البرتغالي انتهى بوفاة اوتعفوفت .

كما انطلق بعد ذلك الشريف الأكبر من مراكش على رأس "جيش" يضم أكثر من مائة ألف رجل حاملا معه كل ما يلزم للحصار، سار إلى آسفي عازما "إحتلالها " لكن وبعد مباشرة الحصار ظهر التفوق المسيحي فتراجع الشريف وانسحب.[2] الملاحظ أنهم لم يتوقعوا رد فعل البرتغاليين إذ لم يكن بالإمكان أن يستسلموا بسهولة والدليل على ذلك هوتدعيمهم للوجود بأعداد أضخم .

حسب تقرير بعثه أحد السكان البرتغاليين من آسفي عاد من مهمة بمراكش مؤرخ ب 3 شتنبر 1539، كان عدد التجار البرتغاليين والفرنسيين والإسبان بمدينة مراكش كبيرا، كما أصبحت مداخيل الضرائب تسمح لأحمد الأعرج بتجهيز وتجنيد 500 فارس وذلك ما سيعطيه القوة للإغارة على مدينة أسفي وغيرها [3].

لم تكن كل الأطراف راضية عن حصار الشريف لمدينة آسفي. ففي رسالة مؤرخة ب5 شتنبر 1542 يخبر فيها "سيماوكوريا" الملك، أن أهل أسفي هاجموا الأراضي الخاضعة للشريف، والتي تعرضت بها بعض قوافل أهل الغربية للنهب، وقد تم أسر صهر الشريف، بل يقولون أن الشريف توفي، ويضيف سيماوكوريا: "إن جلالتكم تعرف أهل اسفي ومدى ولائهم لعرشكم ومن ثم فهذه المعركة القائمة بين الشريف وأهل أسفي تخدم مصالحكم .

---

[1] وردت كلمة الشرفاء لدى كل من دييغودي طوريس في كتابه : تاريخ الشرفاء وهنري دوكاستر في المصادر الدفينة: الأرشيف البرتغالي في العديد من الوثائق ويظهر ذلك فيما بعد، دون التعرف على الهوية الحقيقة لهؤلاء الشرفاء كالتعرف على أسمائهم مثلا

[2] دي طوريس(دييغو) تاريخ الشرفاء، م.س، ص 53

[3] S .I.H.M.PORT. T . III.P : 220-223

كما يصف له ما يجري في أزمور ونواحيها ويبين له الوسائل التي يراها ناجعة لصموده في وجه مولاي محمد حيث جاء على لسانه : "إذ هناك أهل أسفي في خدمتكم وأتباعهم فهم قادرون على منع دخول مولاي محمد لدكالة بمفردهم وولاءهم لنا هوبمثابة ركيزة تجعل كل تلك القبائل مضطرة إلى إستشارتي إن هي أرادت التوفر... على قيادة ".[1]

وفي الحقيقة قد يكون الوضع اعقد من الحديث عنه بهذه الطريقة حيث أن موقف الشريف من ساكنة المنطقة قد يكون سببا في دفعه للتعامل مع أهل المنطقة بنوع خاص من التعامل كما من الممكن أن تكون ساكنة المنطقة إما بدوافع ذاتية أوبإيعاز من الوجود البرتغالي رافضة للسلطة المحلية لأنها لا تحقق لمصالحها الشخصية أية منجزات وفي ظل الندرة التي تطال المصادر التاريخية التي تتحدث عن هذه المنطقة وعن الفترة تبقى الفرضيات قائمة، إذ تطرح أسئلة حول مصداقية ما ورد في هذه الرسائل.

يذكر الناصري في الإستقصا "أنه لما زحف الأشراف إلى بلاد عبدة كان بينهم وبين يحي المذكور ونصاراه معركتان شديدتان، كان الظهور فيهما ليحي، لكن أبا العباس الأعرج تدارك أمره فورا وجمع عسكرا آخر، وخطبهم ووعظهم، وزحف إلى يحي المذكور ففضه وفض نصاراه إلى أن نجحوا بأسفي وأغلقوا عليهم وأتيح لأحمد ما لم يتقدم لغيره فيهم فبذلك تأتى له أن يتناول ملك المغرب.[2]

تجدر الإشارة إلى وجود غموض في بعض المعطيات التاريخية بين ما ورد مثلا في المصادر الغميسة الأرشيف البرتغالي حول وفاة أومقتل يحي سنة 1518 على يد قبيلة أولاد عمران وبين رواية الناصري الذي يقول فيها بان مقتل يحي كان على يد أبي العباس الأعرج وأنه بقضائه عليه استتب له حكم المدينة أي حوالي 1530

[1] بنكرعي (حليمة)، ترجمة وثيقة برتغالية مصدرها الخزانة الوطنية البرتغالية بلشبونة، كلية الأداب والعلوم الإنسانية، القنيطرة، ص. 123

[2] الناصري (أحمد)، الإستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، م .س، ج 4، ص.10.

بل يربط سيطرته على مدينة آسفي بسيطرته على المغرب ككل وهذا ما يطرح نوعا التناقض الذي لابد من طرحه .

يقول الناصري عن الخروج من آسفي في كتابه الإستقصا : "رأيت في تواريخ الفرنج أن البرتقال (البرتغال) خرجوا من آسفي سنة 1530 مسيحية ...وهي وسط دولة السلطان أبي العباس وزعم هذا المؤرخ أنهم خرجوا منها من قبل أنفسهم ونقلوا جميع ما كان فيها من عدة ....بعدما خربوها وأفسدوها وأوقدوا فيها النار، قال وبقيت 12 سنة مخربة إلا أن أصلحها السلطان محمد الشيخ السعدي الآتي ذكره ".[1]...فهوالسلطان الذي صرف عزمه لجهاد العدووكان منصورا بالرعب حتى ترك البرتغاليون له آسفي واصيلا من غير قتال سنة 1542 .[2]

كما أنه دافع أشد دفاع عن الوطن وأجلى البرتغاليين عن سواحل السوس كما أنهم أقلعوا عن مرسى آسفي وأزمور، الشئ الذي لم يتأتى لغيره من قبل [3] وتكون بذلك المدينة قد نالت استقلالها في هذه الفترة لتبدأ مرحلة تاريخية أخرى إختلفت فيها الكثير من الحيثيات .

3- الأصول الإثنية ليهود المدينة

احتضنت مدينة أسفي شأنها شأن بعض المدن المغربية العتيقة، تواجدا يهوديا قديما وآخرا حديثا و-هوالمؤكد- في الفترة الحديثة من تاريخ المغرب، كما تشهد بذلك المصادر والمعطيات التاريخية[4] .

أما بخصوص التواجد القديم وبحكم شح المعلومات في المصادر الأدبية، وحتى المعطيات الأركيولوجية، فالحديث عن

---

[1] الناصري، (أحمد)، ص 16، كما نجد في الهامش قرر البرتغال إخلاء أسفي في السنة المذكورة ووقع خلاف بينهم فبقي الأمر موقوفا إلى سنة 1541 فتم إخلاؤها حينئذ لما إفتتح المسلمون حصن فونتي عنوة

[2] S.I.H.M. PORTIGAIS; tome II ; p : 294

الناصري (أحمد)، الإستقصا، الجزء الخامس،م.س، ص. 19 – 20.

[3] السليماني (عبد الله)، اللسان المعرب عن تهافت الأجنبي حول المغرب، مطبعة الأمنية، الرباط الطبعة الأولى، 1971 ن، ص 74.

[4] كريدية (إبراهيم)، أضواء على الربي أبراهام بن زميروا السبعة بأسفي، الطبعة الأولى، 2005، ص 26-27

تواجد فعلي مدعوم بالمصادر يبقى ضعيفا جدا أومنعدما، إذ وبالرغم من إشارة بعض الدراسات التي أتيحت حول هذا الموضوع فإنها تبقى غير مؤسسة لبناء معطيات تاريخية سليمة في هذا الصدد.

ويشير الحسن الوزان إلى التواجد اليهودي في المدينة بقوله: كان بمدينة أسفي قديما عدد كثير من الصناع ونحومائة دار لليهود ".[1]

أما بالنسبة للأصول الايبيرية ليهود المدينة والتي تحظى بمصداقية أكبر نظرا لتدعيم المادة المصدرية المتوفرة لذلك، فبعض العائلات ذات الأصول الإسبانية والتي هجرت البلد إلى البرتغال طلبا للنجاة هربا من الاضطهاد، لكن مصيرها كان هوالطرد إلى جانب المسلمين .

إذ نص قانون 31 مارس 1492، على خروج اليهود بأمر من الملك فرنانديس من إسبانيا في أجل لا يتجاوز 31 يوليوز من السنة ذاتها تحت التهديد بالإعتقال والمحاكمة والقتل، لكن مقامهم بالبرتغال لم يعمر طويلا إذ سرعان ما جارى ملوكها جيرانهم الإسبان .

وقد شهدت فترة الملك البرتغالي إمانويل (1494-1521) أحلك الفترات بالنسبة لليهود في تلك الفترة حيث أصدر هوالآخر قانونا يقضي بخروج اليهود من البرتغال خلال أحد عشر يوما ويوصي بانتزاع أطفالهم منهم وحجز أموالهم وممتلكاتهم والإبقاء على من قبل منهم التنصر والارتداد عن ديانته ويقدر عددهم بحوالي مائة ألف نسمة [2]

وتأتي الغاية من الحديث عن الأصول الايبيرية ليهود أسفي تبيين الفرق بين اليهود الأصليين الذين كانوا يتواجدون بالمدينة وبين اليهود النازحين من الأندلس ومن البرتغال إبان الطرد الجماعي ومحاكم التفتيش .

---

[1] الوزان (الحسن)، وصف إفريقيا، الجزء الأول، م.س، ص. 147

[2] كريدية (إبراهيم)، "أضواء على الربي أبراهام كبير أولياء بن زميروا السبعة بأسفي " ص 26-27

ما ذكر وعلى الرغم من قلته إلا انه يوضح إلى حدّ ما وجود صنفين من اليهود، كما يوضح الظرفية التي رافقت استقرار هذه الفئة بالمدينة وما تعرضت له، إلا أن المادة المصدرية وحتى الدراسات التي تتناول الفترة بالدراسة والتحليل، لم نجد فيها إلا النذر القليل من المعلومات والتي لا تسمح بالتفصيل أكثر اللهم بالخروج عن الموضوع .

وتجدر الإشارة إلى أنه في هذه الفترة سيظهر مصطلحا "التوشابيم"و"الميغوراشيم" تعبيرا عن التمييز بين اليهود الأصليين واليهود المهاجرين وستبرز الحاجة لهذا المصطلح أكثر في المدن ذات التواجد اليهودي المهم (أسفي) .

لكن وعلى الرغم من ذلك، لابد من الإشارة إلى ما ورد بخصوص بعض العائلات اليهودية الوافدة على المدينة من مجالات أخرى في فترة سابقة على الفترة الحديثة كما أشارت لذلك بعض الكتابات : إذ نجد على سبيل المثال : "أفلو" من تافيلالت و"الدرعي " من درعة و" إبن السوسي" نسبة إلى بلاد سوس و"بلفاسي" نسبة إلى فاس[1]. وقد إشتهرت الأسر اليهودية عامة بالتنقل نظرا للنشاط الذي كانت تمارسه وهوفي الغالب التجارة والعطارة ......

وفي الجدول التالي سيتم تقديم الأسماء اليهودية وأصولها الأمازيغية ومعانيها كما هومبين :

---

[1] نفسه، ص. 27-29

الألقاب اليهودية	أصولها الأمازيغية	معناها
أمزلاغ	أمزلاغ	التيس
أزانكوت	أزانكود	الغزالة
بن حمو	بن محمد	------
بن عبو	إبن عبد الله	-----
بن زاغلو	-------	الرجل ذو الطوق الحديدي
بن غانييم	-----	الرجل ذو القصبة
إيلوز	-------	الإحساس بالجوع أو العيش في الفقر
خنافوا	أخنيف	البرنوس الأسود
ميلو	أملول	أبيض
أوزانا	أزانا	إبن السماء
ويزمان	إيزم	إبن الأسود

تبقى العديد من المعطيات التاريخية المتعلقة بهذه الفترة، وبهذه الفئة، مبهمة في ظل غياب وثائق تزيل الغموض، وتكشف صحة الفرضيات من عدمها، فلا تكتسي أي فرضية مصداقيتها بدون حجج أوأدلة. على الرغم من وجود العديد من الإشارات التي تحيل فعلا على تواجد سابق وحتى يتحقق ذلك نكتفي بما توفرنا عليه من معلومات في ظل كل الحيثيات المرتبطة بالموضوع .



38. Scènes et Types – MAROC – Un vieux juif marocain

الفصل الثاني:
العلاقات والوظائف

1- علاقة اليهود بالقوى المحلية

2- علاقة اليهود بالبرتغال

3- أنشطة ووظائف اليهود

أ- التجارة

ب- وظائف أخرى

1- علاقة اليهود بالقوى المحلية

إذا كان المجتمع المغربي قد اعتاد كباقي المجتمعات تهميش الفئات التي تميزها صفات معينة كالمجاذيم والحمق واليهود (في بعض الفترات التاريخية)[1] فقد عرف البرتغاليون كيف يربطون علاقات متينة معهم وبخاصة (الميكوراشيم)[2]، والتي خدمت مصالحهم إلى حد بعيد.

إن السيطرة الإقتصادية التي حصلت لليهود النازحين (الميكوراشيم) إلى المدينة إبتداءا من 1510، نتيجة للصراع الذي دار بينها وبين الفئة الأصلية (التوباشيم) كما تتحدث عن ذلك الوثائق البرتغالية هذه السيطرة أعطت هذه الفئة دون غيرها قوة سياسية جعلتها فاعلة في عدد من الأحداث الكبرى.[3]

فقد لعب اليهود داخل المدينة أدوارا عدة، تمكن من خلالها البرتغاليون من توطيد سيطرتهم على آسفي في وقت أقل، حيث أوقعوا بين علي بن وشمان ويحي أوتعفوفت أثناء نزاعهما حول حكم المدينة.[4]

وفي هذا الإطار ندرج قضية الطبيب اليهودي الذي كان يزور "كارسيا دي ميلو"، لأنه كان مريضا وقد أرسل بطاقات، أدت في نهاية المطاف إلى خلق نزاع بين علي بن وشمان ويحي أوتعفوفت. حيث كان يوهم كلا منهما أن صاحبه يريد قتله ليلجأ إلى طلب العون من البرتغاليين، وكان هذا الطبيب يأخذ البطاقات من يد "كارسيا" وهويجس نبضه في السرير ويرجعها له بنفس الطريقة.[5]

---

[1] بوشرب (احمد)، وثائق ودراسات عن الغزو البرتغالي، م .س، ص87

[2] اليهود النازحون من الاندلس والمطرودون

[3] S ;I ;H ;M. port ; tome ; I ; p : 345-348 -349

[4] ibid ; p: 175

[5] مارمول (كاربخال)، إفريقا، الجزء الثاني، م .س، ص. 73.

فكان المغربيان يقدمان إقترحات مهمة للبرتغاليين حتى يستعين بهم كل منهما ضد خصمه فساعداهما على الدخول مع خمسين جنديا .[1]

وإن كان كل ما ذكر آنفا عن مساهمة الزعامات المحلية في تسريع الاحتلال وفي بقائه فإن الدور اليهودي في هذه القضية ثابت وله وزنه في سيرورة الأحداث وفي مآلها .

وتظل خصوصية الأقلية التي تسري على اليهود في أغلب المجتمعات متحكمة إلى حد ما في جعل هذه الفئة تحارب ضد الإحتواء الذي تقع فيه داخل المجتمع ولكن لا يتأتى لها ذلك، إلا عن طريق السيطرة على المجال الاقتصادي- التجارة بالدرجة الأولى – كما هو الحال بالنسبة لمدينة آسفي.

فخولها كل ذلك التحكم في بعض القضايا وتبوأ مكانة سياسية وإجتماعية معينة، إذ والحالة هذه كان لابد من أن تلتقي مصالحها بمصالح الدولة الحاكمة (البرتغال) كما كان تقربهم من القوى السياسية المحلية بمثابة حصانة لهم وهم الذين يمارسون التجارة الشئ الذي يجعلهم دائما مستهدفين عند حدوث الفتن والإضطرابات وضعف السلطة [2]

فقد توجه يحي مع أهل الغربية وعبدة، وبعض حملة الرماح نحو الملاحات ومن هناك أرسل في طلب أولاد عمران لكنهم تأخروا عن المجيء ببضعة أيام. المهم أن هذا الحدث من بين الأسباب التي جعلت اليهود لا يحبذون التعامل مع يحي أوتعفوفت فيما بعد ويحتاطون منه .[3]

وقد صرح الربي (Rabin) أبراهام بن زميروا في رسالة منه إلى إمانويل الأول بتاريخ 12 أكتوبر 1512، أنه إذا أراد أن يصبح سيد البلاد فمن الضروري أن يسحب القيادة من يحي كما اخبره بأنه

---

[1] مارمول (كاربخال)، إفريقيا، ص 74

[2] المنصوري(عثمان)، التجارة في المغرب في القرن السادس عشر، م .س، ص. 361

[3] دي طوريس(ييغو)، تاريخ الشرفاء، م .س، ص. 51

لا يعرف (الملك) تصرفات أوتعفوفت، فلوكان فعلا يدري حقيقته لتفاجأ .

وهنا تظهر محاولات التأليب التي كان يقوم بها اليهود في محاولة منهم لاكتساب مكانة المغاربة ونيل امتيازاتهم .

حيث اعتبر الربي هجوم ملك مراكش على المدينة كان سببه تصرفات يحي، وأن مخططه كان سحق عبدة واستدراج نكالة وأهل المدينة وأولاد عمران، وأنه خطط لإغتيال دي أتايد لكن هذا الأخير تفطن لذلك فأخذ إحتياطاته على هذا الأساس [1].

كما يضيف أن تصرفاته أثناء المعركة تنم عن نية مبيتة بغدر الملك حيث يقول بأن الفرقة التي كانت تحت إمرته هربت من المعركة لإستدراج الأخرين، هوالأخر لم يتقدم إلى الهجوم بل قام بالإختباء .

بالإضافة الى قيامه بتحرير 300 أسير بعد إنتهاء المعركة خير دليل بالنسبة لأبراهام أنه تجاوز حده وبدأ يتصرف كملك وليس كقائد تابع للملك وفي نظره يجب أن يؤدي ثمن تصرفه برأسه، ويضيف أنه يربط علاقات في الخفاء مع بعض الأهالي الذين يريدون أوضاعا جيدة ويأخذ منهم في المقابل هدايا [2].

يظهر من خلال هذه الرسالة دقة المعلومات التي يتوفر عليها الربي أبراهام كما يظهر إلى جانب ذلك تحامله على يحي وذلك بتحريض الملك على قتله ويحمله مسؤولية المصائب التي حلت بالمدينة.

كما قام "نونيودا كونها" (NUNO DA GUNHA) رفقة أوتعفوفت بالدخول إلى الشياظمة وإفراغ المخازن مقتحمين حسب الربي أبراهام أماكن لم يكن يتصور أن يصل إليها المسيحيون،

---

[1] S ;I ;H ;M portugais; tpmc : I ;P: 356
[2] ibid : I ;P: 356

وأن يحي كان سيتقدم جميع الأهالي الذين يريدون الخضوع ويعالج معهم الأمور كما لوكان ملكا دون أي إستشارة [1].

ولم يكن أبراهام يرسل تقارير عن تجاوزات يحي وحسب بل كان يضمنها كل ما لا يصب في مصلحة الملك حتى وإن كانوا من خدام الملك أنفسهم.

مما يزكي أقوال أبراهام بن زميروا ما تضمنه بلاغ ضد يحي أوتعفوفت مؤرخ ببداية 1513 ينصح فيه شيخ الغربية "بن يهودا" زوجات اربعة شيوخ من أولاد عمران- أتين لرؤية أبنائهن- أن يذهبن ليحي أوتعفوفت لرؤية الأمر معه في هذا الشأن وكذا بالنسبة للحصول على الأراضي من أجل حرثها، كون الأمور كلها بيده وكون حاكم مدينة أسفي (البرتغالي) لا حول له ولا قوة . [2]

يضيف بن زميروا أن جميع القرى الحدودية على ضفة البحر تدفع الضريبة وهدايا ليحي كما كان هوالملك فقام على إثر ذلك بتعيينهم قيادا تحت إمرته .

كما كشف سليمان (قريب أبراهام) عن بعض التصرفات التي كانت تبدوضد مصلحة الملك، سعيد ابن أخ أوأخت يحي والذي كان يحل محله خلال تواجده بالبرتغال كتب بشكل خاص أنه لا يطيع إلا يحي الذي هوملك المغاربة والمسيحيين . [3]

ونظرا لكون أبراهام بن زميروا كان ثقة فقد إلتجأ إليه دي أتايد في رسالة بتاريخ 12 شتنبر 1514 إلى إمانويل الأول، في قضية رهينة المدينة(الحاج)، قد أحدثت خلافا حادا بينه وبين يحي، كونه أكثر خطرا من الشريف وذلك لرغبته في الإستيلاء على البلاد كلها لكنه قد تنبه لذلك مبكرا [4]

يخبر نونيو دي أتايد إمانويل في رسالة بنفس التاريخ أن يحي أوتعفوفت قتل عبد الجليل وداردير و (dardeiro) وأنه كان يريد

---

[1] Ibid tome : I : p 356-357
[2] ibid P: 378
[3] ibid P:619-620-621
[4] ibid P : 630-631

أيضا قتل سليمان ولم يتم إخبار الملك بذلك لكن إسحاق بن زميروا أخبر أتايد بذلك وحذره من تشويشه على علاقتهم ب (Pedro des Sourga) "بيدروا دي سورغا" بسبب الخلافات التي يحدثها .[1]

كما أن يحي أوتعفوفت كان معارضا للإحتلال البرتغالي لأسفي ولما بدأ التجار البرتغاليون وبخاصة اليهود (أسرة بن زميروا)، يتدخلون في الشؤون الداخلية للمدينة ويخلقون الحزازات بين الزعامات المحلية من جهة وبين يحي والبرتغال من جهة أخرى أخذت العلاقة تتشنج بينه وبينهم[2].

فقد كان أبراهام بن زميروا يكره يحي أوتعفوفت والمغاربة على حد سواء[3].

اذ خلقت العلاقات التي كانت تربط يحي بالعرش البرتغالي معارضة قوية له تمثلت في معارضة بعض القباطنة وبعض العناصر اليهودية - خاصة أبراهام بن زميروا- حيث إصطدمت مصالحها مع مصالحه .

وذلك راجع الى إنتصاراته الأولى على الناصر الهنتاتي سنة 1512، والتي أدت إلى تزايد شهرته في المنطقة وفي تنامي العداء اليهودي له وهكذا تعرض خلال نفس السنة لإتهاماتهم وأخطرها إعداده لخيانة المسيحيين وإغتيال القبطان وتسميه بالملك في بعض رسائله وتعيينه لبعض الشيوخ والمقدمين دون إستشارة الملك ....[4]

لكن نجاح يحي أوتعفوفت ساهم في تهدنة عبدة والغربية سنة 1516، وإلى اختلافه مع القبطان ماسكريناس (فيحي كان يريد المحافظة على الأمن والإستقرار بينما كان يريد ماسكريناس ومن معه الحروب للحصول على الغنائم)، مما خلق له مواجهات مع

---

[1] S ;I ;H ;M portugais; tpme : I ;P 658
[2] ibid p 138
[3] ibid P:
[4] ibid ; p : 337-378-381- 385

القبطان ومساعديه زادتها أسرة بن زميروا اليهودية حدة لأنها كانت على علاقة جيدة مع القبطان ومع العرش ككل .[1]

لم يكن نجاح يحي في تحقيق الهدنة وحده سببا في كره اليهود ليحي فقد كان منافسا له في دور الوساطة مما جعل بعض الأسر اليهودية في المنطقة تقوم بدور بارز في هذه الخلافات.

فلم يتردد أبراهام بن زميروا في الكتابة للملك بأن مصلحة البرتغال تقتضي ألا يسند أي مهمة لأي مغربي وليحي أوتعفوفت بخاصة .[2]

كما ضمن هذا الحاخام مذكراته جميع الخروقات التي يقوم بها يحي والتي لا علم للملك البرتغالي بها [3]

فقد كان قتل اليهودي موسى درديروا (التاجر والمترجم)، والمتهم بإخبار قبطان أسفي بكل تصرفات يحي ضد المسيحيين سببا آخر في تشنج العلاقة ما بين يحي والأسر اليهودية لأن مقتل هذا اليهودي كان على يدي يحي الذي قطع راسه [4]

دفعت كل هذه الشكاوي الملك البرتغالي - نظرا لإرتباط مصالحه بكل الأطراف- إلى تقسيم المنطقة بين قبطاني أسفي وأزمور، لإخراج الشرقية من سلطة يحي التابع لأسفي وذلك لتفادي تقوية نفوذ يحي وتعزيز وزنه السياسي.

إستمر أوتعفوفت رغم كل المؤامرات من طرف اليهود، في الدفاع عن المكتسبات البرتغالية [5]

إذ هرب اليهود دائما من أي منطقة كان الأمن فيها مهددا ومن أمثلة ذلك هروبهم من فتن واضطرابات مراكش سنة 1541، على إثر النزاع الذي شب بين المولى أحمد وبين أخيه محمد الشيخ وإنقطاع تجارة تارودانت والجنوب عن مراكش وكذا بسبب

---

[1] S ;I ;H ;M portugais; tpme : II; P : 357 n 29-30-31
[2] ibid ; tpme : I ; p : 356
[3] ibid : p : 619- 629
[4] ibid : p : 358
[5] ibid ; p :335

المجاعة والجفاف، لذلك إلتجأ اليهود إلى آسفي بأموالهم لأنها آمن لهم.[1]

واذا كانت علاقة بعض اليهود النازحين بالمغاربة على هذا النحو فاليهود الأصليين لم تكن لهم نفس المعارف التي توفرت لغيرهم بل كانوا جزءا من النسيج الإجتماعي والثقافي المغربي .

وقد جرّت المعارضة اليهودية ليحي أوتعفوفت معارضات أخرى من بينها المعارضة البرتغالية (أتايد وماسكريناس)، بل وحتى من داخل المدينة بتحريض عدد من السكان على مواجهته والخروج عن طاعته، مما جعله في حيرة من أمره فلم يعد يحس بالإنتماء إلى أي جهة. يظهر ذلك بشكل جلي في الرسالة التي بعث بها إلى أحد أصدقائه بالبرتغال يقول له فيها : "يقول عني المسلمون أني نصراني ويقول النصارى عني مسلم، أتارجح هكذا دون أن أعرف ماذا أفعل بنفسي .[2]

ولم تكن العلاقة متوترة دائما بل اتخذت مختلف الأشكال التي تتخذها في العادة بين المسلمين بعضهم البعض.

حيث نجد في رسالة مؤرخة ب 1 يوليوز 1510 والمرسلة من "جواولوبز دي ميكا " إلى إمانويل الأول يخبره فيها أن مولاي زيان حل بمنزله بالقوة. وقد حلّ بالمدينة كوالي بيده السلطة والفصل في قضايا المسيحيين واليهود وأيضا بعض المغاربة من الطبقات الدنيا.[3]

إستعمل الملك البرتغالي هذه الفئات في محاولة إرضاء القوى المحلية وذلك بتحكيمهم عليها، لكن الأمر لا يسري على كافة اليهود إذ توجد بعض الإستثناءات وتطال بخاصة الأسر التي ترتبط في علاقات مع العرش.

---

[1] S ;I ;H ;M portugais; tpme : III ; P : 407-440

[2] ibid ; tpme : II ; p : 106-107

[3] ibid ; tpme : I ; p : 230

في رسالة بتاريخ 2يوليوز 1509 من ساكنة آسفي :عبد الله بن جطـ مسعد وهس، منصور بن سعد الله، أحمد بن حد، علي بورحيس، إلى إمانويل الأول، يتشكون فيه من تجارة الرقيق :... وبهذا الأمر يا مولانا عادت رجالك تشتري في المسلمين ويأخذونهم غصبا وقهرا وعادت السراق من المسلمين واليهود يسرقون أولاد العربان والمصامد .[1] فامتهان اليهود لتجارة الرقيق في المسلمين كان يجر عليهم العداء.

كما كان الشرفاء السعديون يكنون العداء لليهود وبخاصة المتعاملين مع البرتغاليين.[2] هكذا اتخذ ضدهم أحمد الأعرج مجموعة إجراءات لكن سرعان ما اضطر إلى التخلي عنها تحت ضغط قبطان آسفي [3]

كما يتجلى العداء أيضا من خلال رسالة بعث بها أحد أفراد بن زميروا من "تيكورارين" إلى أحد أقاربه يذكر له فيها أن جواب جنود الأعرج على سؤال اليهود المتعلق بعدد يهود ممالك سلطانهم كان هو"قللهم (قل لهم) عندكم شي يهود ؟ قللهم الفرسن عندن كثير من اليهود (اليهد) للغرم والضرب والشتيم ". لهذا ردد كاتب الرسالة ثلاث مرات عبارة "الشريف الله يمح إسمه ".[4]

ويظهر ذلك أيضا من خلال هذا البيت الشعري الذي قال "المجدوب" فيه والذي عاصر الفترة بقوله .

حتى واحد ما غشاش كالمرأة واليهودي [5]

وقد نتجت هذه النظرة القدحية أساسا عن نظرته لليهودي الذي كان على علاقة جيدة مع البرتغاليين بالأساس ومن معاملاته التجارية التي كان يرى فيها المغربي أنه يقع ضحية مكر ينطلي عليه من طرف هذا التاجر .

---

[1] S ;I ;H ;M portugais; tpmc : I ;P:180- 181-182-183
[2] ibid ; tpmc : III ;P:417
[3] ibid ; tpmc : II ;P:359-360
[4] بوشرب (أحمد)، دكالة والإستعمار البرتغالي، م .س، ص.471، وهذه الرسالة عبارة عن وثيقة توجد بدار الوثائق
[5] م . ن ، ص. 480

فحين عرفت آسفي سنة 1526 نوعا من الإضطراب، كان اللصوص يهاجمون اليهود، ويخطفون الأردية من أظهرهم.[1]

كما كان اليهود معرضين خلال الأزمات إلى ضغوط المخزن لتمويل نفقاته بحيث أصبحوا يبحثون بكل الوسائل عن تجميع مبالغ الضرائب الثقيلة من السرقة والنصب وغيرها.

بينما قتل مايير ليفي الذي كان تاجرا بآسفي على يد محمد الشيخ بسبب إفشائه لبعض المعلومات إلى حاكم سانتا كروز البرتغالي سنة 1541 .[2]

على رغم العلاقة التي كانت تربط اليهود بالبرتغال وكل ما قدموه لهم من خدمات لم يكن اليهود يفوتون أية فرصة للإستفادة من الأشخاص الذين يخدمون مصلحتهم من المسلمين مثلا.

فقد كان أبراهام بن زميروا وهويفاوض الشريف السعدي يعمل على الحصول على إمتيازات تجارية بمراكش ويتقرب إليه بتنبؤه له بقرب موعد إنتصاره.[3] وبالتالي كانا يلعبان على الربح من الطرفين .

توضح رسالة مؤرخة ب5 شتنبر 1542 أن سيماوكوريا يطلب من الملك أن يجعل "دون رودريكو" وإسحاق بن زميروا يعملان على جعل أهل آسفي يعينون سيدي ميمون قاندا، فتكليفهم بذلك سيزيدهم إعتزازا وفخرا وبما أنه صديقهم فسوف لن يجدوا صعوبة في منحه شكيمة الخدمة [4]

وقد ظهرت قوة وشهرة أسرة بن زميروا في المدينة وخارجها ونال أبراهام كبيرها رضى القبائل وقبول الشريف له كوسيط للتفاوض .[5]

---

[1] S ;I ;H ;M portugais; tpme : II ;P:391

[2] ibid : tome : I ;P:366- 653-655

[3] باكوري(محمد)، اليهود في عهد الدولة السعدية، م.س، ص. 75.

[4] دي طوريس (دييغو)، تاريخ الشرفاء، م.س، ص. 125.

[5] S ;I ;H ;M. port ; tome ; I ; p : 348-350-356- 359-360 367

كما كان أبراهام بن زميروا وهويفاوض الشريف السعدي يعمل على الحصول على إمتيازات تجارية بمدينة مراكش مقابل عمله وقد فضح بعض السجناء البرتغاليين مخططاته بأسفي .[1]

أما السعديون فقد قدروا جيدا الخدمات التي قدمها إبراهام بن زميروا الذي حصل من مولاي أحمد الأعرج على إعفاء من دفع الضرائب على بضائعه.[2]

على الرغم من معرفتهم طبيعة العلاقة التي تربط اليهود بالبرتغال إلا أنهم كانوا على دراية بمكانتهم وبأهميتها في الحسم في بعض القضايا لذلك كانت علاقتهم جيدة بهم.

ونظرا للدور الفعال الذي قام به بن زميروا في الوساطة نجده في رسالة مؤرخة ب3 يناير 1511، يخبر الملك إمانويل أن أهل المدينة في خلاف حول الحكم البرتغالي، وأن من حاصر المدينة بالأمس يطلب الأمان اليوم وأنهم يريدون إرسال إثنين من أعيانهم راجيين وساطة الربي أبراهام[3]

كما يخبره بأن عرب "مازكان" (Mazagan) لديهم مقترحات بالخضوع فقد وصل إثنان من أعيانهم إلى أسفي أنفا وينتظرون رد الملك[4] .

يظهر الدور اليهودي في المفاوضات بين مختلف الأطراف سواء داخل المدينة أوخارجها والمثير هوالثقة الممنوحة لهم من قبل كافة الأطراف مما أكسبهم شهرة في هذا المجال.

كان التجار اليهود يضعون مصلحتهم قبل كل شيء، لذلك نجدهم يتنقلون بين المواقع، وخير دليل على ذلك "يعقوب روط" الذي بدأ مترجما بأسفي وإنتقل إلى فاس بعد ذلك ليسخر كل جهوده

---

[1] S ;I ;H ;M portugais; tome : II ;P: 508

[2] ibid ;tome I p :22

[3] بالنسبة لكبير بن زميروا فإن إسمه ورد بالصيغتين "أبراهام "وإبراهيم" في المصادر الدفينة بحسب الأجزاء فالجزء الأول إعتمد بكثرة الصيغة الثانية بعكس الجزء الثاني الذي كثرت فيه الصيغة الأولى.

[4] S ;I ;H ;M. port ; tome ; I;p: 2 81

لخدمة الدولة ودعم علاقاتها مع البرتغال وفي نهاية القرن نجده بمراكش من أثرياء اليهود الكبار مما يؤكد أن مكانته لم تتغير في ظل الحكم السعدي .[1]

كما ساهم اليهود مع باقي التجار في دفع خمسين أوقية إلى السلطان السعدي مقابل عدم مهاجمته للمحاصيل الزراعية .[2]

وفي رسالة مؤرخة بما بعد 26 شتنبر 1527 من جون الثاني إلى مولاي مسعود يخبره فيها أنه توصل عن طريق الربي أبراهام برسالته المتعلقة بالمفاوضات حول السلام معه ومع ملك فاس كما يخبره أن الظروف فقط غير ملائمة وأن ملك فاس يريد إبرام عقد السلام، كما يشكر الملك جون الثاني مولاي مسعود على عرض خدماته عن طريق الربي أبراهام [3]

وقد تولى اليهود الشؤون الديبلوماسية ايضا حيث قام الربي أبراهام بتسليم رسالة كتبها أحمد العطار إلى الكونط "لينياريس" في 4 مارس 1528 يخبره بتطورات الأوضاع.[4]

في رسالة مؤرخة ب 15 شتنبر 1529 من سيماوكونك ادا كوسطا إلى جون الثالث، حيث يخبره أن هناك خلافات في سانتا كروز ونعرات وأن الشريف ذهب لمحاصرتها ب400 مدفعية وأنه منذ وصول سيماوإلى سانتا كروز أخبر تاجر من مراكش أن السلام المتفاوض حوله مع الشريف قد تم الحسم فيه بواسطة بن زميروا المفوض من طرف البرتغال .

لكن ذلك السلام لم يدم طويلا بسبب تهديدات الشريف للبرتغاليين واليهود على حد سواء بالقتل لأي منهما تسول له نفسه الدخول إلى حدوده .[5]

---

[1]S ;I ;H ;M portugais; tpme : IV ;p : 106 -107 / S ;I ;H ;M. Angleterre ;tome I p :232

[2] ibid ; tome : II ;P: 418

[3] ibid ;P: 416

[4] ibid ;P: 436

[5] ibid ;P :482

كما إزدادت مكانة أبراهام بن زميروا لدى البرتغاليين بعد الدور الذي لعبه في عقد هدنة بين مولاي أحمد السعدي والبرتغال سنة 1525 كما ربط علاقات تجارية مع فاس، وقام إسماعيل بن زميروا تاجر أسفي بمهمة إفتكاك الأسرى البرتغاليين لدى السلطان السعدي أحمد الأعرج [1]

في رسالة بتاريخ 17-26 شتنبر 1527 من مسعود بن الناصر إلى الكونط دولينهارس تشير الرسالة إلى وظيفة اليهودي كمراسل بين بعض القوى وبين البرتغال حيث يقول فيها : "الحمد لله ... وبعد قد وصلنا اليهودي ولارانينا منكم كتاب و....نحن كتبنا للسلطان جواب مع كتابه مع أبراهام الحزان اليهودي ونحن منتظرين جوابه".[2]

ويظهر من خلال ما ورد في رسالة من "إيناسيونونيس" إلى يوحنا الثالث 30 ماي 1541، يخبره فيها "أن المغاربة وخاصة الشرفاء يفضون بأسرارهم لليهود أكثر من أكبر قائد آخر".[3]

نخلص إلى القول بان العلاقة بين اليهود وبين القوى المحلية تميزت بكونها مرة تنم عن حدوث انسجام وتوافق في المصالح وتعايش بين الفئتين وأخرى تتميز بالكراهية والحقد والرغبة في القضاء على الخصم خاصة حينما تضيق دائرة المصالح المشتركة.

2- علاقة اليهود بالبرتغال

لقد دخل اليهود في علاقة مع البرتغاليين على عدة مستويات، نظرا لحجم المصالح التي كانت تجمع الطرفين ببعضهما البعض.

حيث إعتمدت الدولة البرتغالية بعد فشل سياستها الاقتصادية في الثغور الشمالية، على العنصر اليهودي في الثغور الجنوبية، فاستخدام العنصر المسيحي لم يأت بنتائج محمودة. على إعتبار أن

[1] S ;I ;H ;M portugais; tome : II ;P:323-348-371 s
[2] ibid ;P:412-413
[3] ibid ; tome : III ;P: 406

العنصر اليهودي، يتوفر على عدة امتيازات، منها كونه يتقن اللغة العربية وفنون التجارة وما يتعلق بها كما أنه مقبول من طرف المسلمين بإعتبار العلاقة القديمة التي تربطه بالمغاربة.[1]

وقد وجد اليهود النازحون من البرتغال لدى وصولهم للمغرب ثغورا محتلة من طرف البرتغال لا تسودها قوانين وضغوط محاكم التفتيش، وبها إمكانيات لتحقيق الأرباح عن طريق التجارة[2]. مما سهل التقاء العنصر اليهودي الذي كان يعاني صعوبة الأوضاع بالقوة البرتغالية التي كانت تتبرص للإغتنام من الظروف بكل الأشكال .

فانحاز اليهود بذلك في البداية إلى البرتغاليين وعملوا على تدعيم وجودهم بالثغور المحتلة (آسفي) فقد كان البرتغاليون محتاجين إلى هؤلاء اليهود لتمويل نفقاتهم الدفاعية والعسكرية.

وكذا لخلق رواج تجاري بالموانئ وللاتصال ببني ديانتهم وعمومتهم في الداخل وذلك لتوسيع مجال المبادلات وخلق روابط بواسطة الترجمة والوساطة وبالفعل هذا ما تؤكده العديد من الرسائل.[3]

فدولة البرتغال لم تطبق على اليهود في الثغور المحتلة (المغربية) ما طبقته عليهم بالبرتغال من تضييق ومحاكمات حفاظا على مصالحها وعلى العناصر اليهودية النشيطة والضرورية لتنفيذ السياسات العامة البرتغالية في المنطقة.

وقد يعزى كل ذلك إلى عدم استشعار الأهمية التي كان يحظى بها اليهود في عدة مجالات من الحياة، كما قد يعزى إلى عدم قدرة البرتغال في ظل الأزمات على دمج اليهود في الأنشطة على اعتبار

---

[1] الزعفراني (حنيم)، ألف سنة من حياة اليهود ص 22، باكوري (محمد)، اليهود في عهد الدولة السعدية، ص. 70.

[2] S ;I ;H ;M. port ; tome ; IV ; p :108

[3] المنصوري (عثمان)، التجارة بالمغرب في القرن السادس عشر، مساهمة في تاريخ المغرب الإقتصادي، منشورات كلية الآداب، الرباط الطبعة الأولى، 2001، ص359

أن الحل هوالتوسع خارج مجال حدود الدولة وأن الحل هوطرد اليهود الذين كانوا يشكلون عبء على الدولة.

كما هرب اليهود من مدينة مراكش بسبب الاضطرابات والفتن ولجأوا إلى أسفي حيث طلبوا الحصول على إذن الملك البرتغالي للإستقرار بها [1]

ومن الممكن أن تكون الأسباب أعمق من ذلك ذات جذور دينية أوعرقية أوغير ذلك، حيث يصعب في الحقيقة إرجاعها إلى مسبب واحد أووحيد .

وإن كنا بصدد الحديث عن يهود مدينة آسفي فتجدر الإشارة إلى أن التاريخ المكتوب لمدينة أسفي[2] لا يشير لليهود إلا في القرن 14 من خلال علاقتهم مع جزيرة مايوركة وفي القرن الخامس عشر مع البرتغال والمعروف أن حوالي سنة 1480 تخلصت مدينة آسفي من السلطة الوطاسية نتيجة تقلص حكم هاته الأخيرة إلى شمال وادي أم الربيع .

ورغم قيام إمانويل بطرد اليهود ما بين 1496 و1497، إلا أنه حاول الإحتفاظ بأكبر عدد منهم بواسطة التمسيح القهري للأطفال وبطرق أخرى، ذلك لكون عدد سكان البرتغال القليل (مليون نسمة) كان يشكل عقبة أمام طموحاتها العالمية[3]، مما أدى بالملك -حين وجد يهودا نازحين ذووأصول إيبيرية بآسفي - إلى تبني سياسة مختلفة إمتازت بالليونة، وقد كتب ديميزوو: "قبل أن نحتلها كانت

---

[1] S ;I ;H ;M. port ; tome ; III ;p: 407-440

[2] نركز هنا على التاريخ المكتوب حتى لا نعطي طابع الاطلاقية للمعطيات، استحضارا للنسبية التي تميز المعلومة في انتظار ظهور وثائق اخرى: (ادبية – اركيولوجية ,,,,,) .

[3] هنا نسجل التناقض الحاصل على عدة مستويات وذلك لانه تم طرد اليهود من جهة واضطهادهم، في حين كانت الدولة تحتاجهم حتى وان كان الامر يتعلق فقط بتكثيف عدد السكان، حتى الذين تم طردهم الى الخارج (الذين لم يقبلوا التمسيح) وجد البرتغاليون نفسهم في حاجة اليهم في البلاد المحتلة، مما يجعلنا فعلا نطرح السؤال حول طبيعة هذه العلاقة المعقدة التي جمعت الطرفين

مدينة آسفي تضم عددا كبيرا من القرى وكان هناك أكثر من 4000 نسمة بالإضافة إلى وجود 400 منزل يهودي [1]

وهذا رقم كبير استنادا للفترة نتساءل عن صحة الأرقام، استحضارا لكل المعطيات الأنفة الذكر والمتعلقة أساسا بوجود عدد قليل من الجماعة اليهودية بالمدينة .

وجد التجار اليهود إقبالا وتقديرا من طرف كل الدول والكيانات السياسية بالمغرب حسب ما تفصح عنه أغلب الوثائق في المصادر الدفينة، فالبرتغاليون قدروا جدا خدمات عائلة بن زميروا وخاصة أبراهام وابنه روط [2]

وبذلك قام الملك البرتغالي بنهج سياسة مختلفة عن التي نهجها بالبرتغال تجاه اليهود وذلك نظرا للظرفية الجديدة التي تحيط تواجدهم في مدينة آسفي، - وكذا من منطق البركماتية التي دفعت هذا الملك إلى تغيير المعاملة.

والتي أدت به سنة 1510 إلى منحهم حق الإقامة في آسفي في الحاضر والمستقبل وتعهده بألا يتم طردهم ضدا عن رغبتهم أوإرادتهم وكفل لهم حرية التدين بعدم إجبارهم على الدخول في المسيحية حتى إذا قرر أحدهم اعتناق المسيحية فيجب أن يلتزم بالعيش في شريعته إلى أن يتم تعميده .

وإذا صادف وقرر الملك ترحيلهم عن المدينة لسبب من الأسباب فسيتم منحهم أجل السنتين لترتيب أمورهم كما سيتم تأمين أغراضهم أثناء مغادرة المدينة.[3]

كما منح في نفس السنة اليهودي أبراهام بن زميروا منصب حاخام على يهود مدينة آسفي بعد أن تراجع عن قراره بمنح المنصب لأخيه إسحاق وذلك لما قدمه هذا الأخير ومن معه من خدمات سياسية هامة للتواجد البرتغالي [4]

---

[1] ليفي (شمعون)، الجماعة اليهودية لأسفي، ص. 176-177

[2] S ;I ;H ;M. port ; tome ; II ; p : 371

[3] ibid tome ; I ; p : 174-175

[4] ibid ; p : 175

وساهم اليهود في بناء التحصينات الضرورية للدفاع عن المدينة تجاه أي قوى تريد تدميرها لصالح البرتغال وبالمقابل حصلوا على مجموعة من الإمتيازات .[1]

وقد قدم اليهود خدمات عامة للبرتغاليين والمحليين على حد سواء وتفصح لنا المصادر الدفينة عن أسماء بعضهم كابن زميروا ومايير ليفي وغيرهم[2]

كانت الدولة البرتغالية تفوض أبراهام بن زميروا مهمة التفاوض في العديد من القضايا وليس هولوحده بل أحيانا بعض من أفراد عائلته، كما هوالحال في معاهدة الهدنة الموقعة مع أحمد الأعرج [3]

وقد ساهم ابراهام بن زميروا بآسفي في توسيع رقعة البرتغاليين كما ساهم أفراد آخرون لا ينتمون لهذه الأسرة في ذلك. كان يهود المدينة الأصليين يؤدون الجزية التي حددت في أوقية أو320 ريالا عن كل دار [4]

وهنا تظهر المفارقة في التعامل ما بين اليهود الأصليين الذين لم تكن لهم نفس العلاقة بالبرتغال وما بين اليهود النازحين، فقد أعفي النازحون من أداء الجزية مقابل الأعمال التي كانوا يقدمونها في حين كانت طبيعة بعض اليهود الأصليين ومستواهم مقارنة بأبناء عمومتهم يحول دون انخراطهم في علاقة من نفس النوع .

كان أبراهام بن زميروا يمضي باسم البرتغاليين نظرا لمكانته باعتباره أهم العملاء، حيث إستقبله الملك إمانويل، في زيارته للبرتغال .[5]

[1] Rozenberger ; les juifs au maroc .... ; hesperis –Tamuda ; Rabat ; 1999 p : 138-144
[2] S ;I ;H ;M. port ; tome ;IV ; p :609-612
[3] ibid ; tome ; II ; p 345-348-350
[4] ibid ; tome ; I ; p : 175
[5] ibid ; tome ; I ; p :

كما كان يهود آسفي نظرا لعدة اعتبارات تدخل في سياق الأحداث وحتى لا نحيد عن صلب الموضوع، مغايرين في أسلوبهم عن يهود بعض المدن الأخرى [1]

وتعددت العلاقات التي ربطت اليهود بالبرتغال ما بين العلاقة السياسية والاقتصادية والعسكرية فأثناء حصار القبائل لمدينة آسفي سنة 1510 وصلت النجدة من البرتغال ومن جزيرة ماديير نفسها التي أوفد إليها رسولا في هذا الصدد، فحدد لكل واحد مركزه منذ بداية الحصار وسلح اليهود بقيادة رئيسين منهم، هما: إسحاق بن زميروا (بن زمرة) وإسماعيل وبعد أن قام بالترتيبات والأشغال التي يقتضيها الدفاع عزم على انتظار الهجوم وبعد مرور سبعة عشر يوما من الحصار ومقتل ستة آلآف مغربي[2] في هجومين، إنسحب المحاصرون ... ولولا التدخل اليهودي لكانت الهزيمة أكبر .[3]

كما كان يقدم اليهود بالإضافة إلى العمل العسكري معلومات وأخبار عن المنطقة، نظرا لطبيعة الأنشطة التي كانوا يمارسون، والتي كانت تسمح لهم بالحصول على عدة معلومات ففي سنة 1511 أخبر فيرناند يس دي أتايد من لدن جواسيسه أومخبريه -اليهود- بوجود خمسة وعشرين دوارا، على بعد فرسخين من مدينة دكالة [4] وإن كان يظهر أن هذه المعلومة بسيطة، إلا أنها تحمل في طياتها العديد من المعطيات

والمتمثلة في ضرورة عمل البرتغاليين على الحصول على ولاء هذه القبائل ودعمها، وعلى موارد مالية ..، أواستشراف حجم الخطر الذي تشكله على التواجد البرتغالي وبالتالي الإعداد له

وقد اظهر اليهود في اغلب المواقف ولائهم ودعمهم للتواجد البرتغالي فأثناء حصار الشريف الأكبر لمدينة آسفي وبعد إنسحابه

---

[1] كاربخال (مارمول)، إفريقيا، م .س، ص. 73.

[2] رقم ضخم لعدد الضحايا الذين سقطوا في المعركة على اعتبار خصوصيات المرحلة ولابد من التشكيك في مصداقية الرقم، الى أن يثبت العكس.

[3] مارمول، إفريقيا، م .س، ص. 75-76

[4] دي طوريس (دييغو)، تاريخ الشرفاء، م .س، ص. 16.

منحدرا وصلت إلى الميناء بعض السفن الشراعية، التي كانت قد خرجت من أزمور حاملة بعض المحاربين .

وذلك بغرض مهاجمة المدينة بقيادة يهودي هو"صماويل فالانسيانو" - كان يتميز بالشجاعة والحذر- ولما وصل إلى المدينة والى الميناء ورأى الرايات فوق السور قال لرجاله إن المدينة قد تكون محاصرة فأنزلهم إلى البر ودخل إلى آسفي وكان ذلك أول مدد توصلت به المدينة .

سرّ به الحاكم والجنود كثيرا إذ كانوا يعرفون بسالته وما كاد اليهودي يدخل المدينة حتى عمل على إستطلاع خنادق الأعداء.

ولما لم يكن بإمكانه التطلع إليها من أعلى السور أبى إلا أن يذهب إليها بنفسه وأمر بفتح باب الحصن وكان يسمى "باب الرهبان" بعد أن نصب فوقه أربع قطع من المدفعية

واختار مائة رجل من الجنود بأسلحتهم وبأيديهم قنابل نارية، خرج ففاجأ المغاربة وأمر بأن تقذف عدة قنابل على أكواخهم المبنية بالأغصان حتى أحرقت وأحرق معها من المغاربة الكثيرون كما قتل اليهودي وجنوده النازحون من المعركة ....[1]

ولم يكن المغرب استثناءا في نوعية العلاقة التي كانت تربط بين اليهود والقوى الايبيرية بل حتى في الجزائر، وكأنها تعاقدت معها على القيام بأعمال محددة حيث يصف السليماني نوعية العلاقة التي كانت تربط بينهما بقوله: "لما كانت سنة 911 إستولى الإصبان على مدينة وهران بمداخلة يهودي في أيام أبي قلمون الزياني، ونكبوا أهلها ما بين قتل وأسر وذلك عند هزم دولة بني زيان وثقتهم بمسلمي اليهود المهاجرين إليهم من بلاد الأندلس ."[2]

---

[1] دي طوريس(دييغو)، تاريخ الشرفاء، م.س، ص 83، يشوب هذه الرواية تناقض حاصل في أقوال "دي طوريس" حيث يخبر بأنه (أي اليهودي) قتل ثم بعد ذلك يقول "..... وانسحب اليهودي والمسيحيين إلى أسفي دون أن يفقدوا رجلا واحدا ولما رأى الشريف بسالة المسيحيين قرر العدول عن ذلك.

[2] السليماني (عبد الله)، اللسان المعرب عن تهافت الأجنبي حول المغرب، مطبعة أمنية، الطبعة الأولى، الرباط 1971، ص. 87 .

وكأن اليهود أصبحوا بمثابة اليد اليمنى لهم في مختلف التخصصات، لطالما كان إمتهان اليهود للنشاط التجاري (باعتباره الممول للتواجد البرتغالي بالمغرب) دائما يؤرق مضجع الساكنة، خاصة ما يخص الجانب الأمني فقد كانوا يحتلون الملجأ والنقطة المستهدفة وقت الفتن مما جعلهم يربطون علاقات حميمة مع البرتغاليين الحامي بالنسبة لهم .

وقدم كل ذلك حرصا على ضمان ولاء اليهود وعلى مقامهم بآسفي تخوفا من إنتقالهم إلى صفوف المغاربة. وهذا ما يوضح طبيعة العلاقة التي كانت تربط يهود آسفي بالبرتغال فرغم كل ما يظهر فإن الحذر والحيطة ظلت حاضرة[1]

كما عمل اليهود على ترسيخ التواجد البرتغالي في المدينة عن طريق امتهان عدة وظائف أخرى إذ احتاج البرتغاليون إلى مترجمين كوسطاء بينهم وبين المغاربة فقد عمل إبن أبراهام بن زميروا " يعقوب روط " الذي كان مترجما بأسفي في البداية لصالح البرتغال وسخر جهوده كلها لذلك .[2]

وحظي اليهود بثقة الطرفين (البرتغال، المغاربة) حيث كان أبراهام بن زميروا يفاوض السعديين من قبل البرتغاليين من أجل عقد الهدنة بين الطرفين ومن أجل تحديد القبائل التي يجب أن تدفع الضرائب لهم . [3]

ولطبيعة العلاقة التي جمعت الربي ابراهام بن زميروا بالبرتغال كما توضح رسالة بعث بها نونيودي أتايد إلى إمانويل الأول بتاريخ 5 ديسمبر 1510 والتي يخبره فيها بأن أسفي ستتم محاصرتها لا محالة وأن الربي أبراهام رغم علمه بذلك إختار المكوث بها عن طواعية [4]

---

[1] S ;I ;H ;M. port ; tome ; I ; p : 174
[2] ibid ; tome ; IV; p : 609-612
[3] ibid ; tome ;II ; p :323-324
[4] ibid ; tome ; I ; p :230

فالخطر هنا لم يمنع ابن زميروا من التشبث بالاستقرار حفاظا على مصالحه بالمدينة، لم يكن البرتغاليون يعتمدون على اليهود فقط بل اقتضت استراتيجيتهم تنويع مصدر المعلومة فتم الاعتماد على بعض القواد المحليين للمدينة والضواحي من منطلق الشك في الطرفين معا من جهة ومن جهة أخرى الرغبة في معرفة الحقيقة![1]

تكشف رسالة أخرى بتاريخ 3 يناير 1511 بأسفي هي الأخرى عن العلاقات المتينة التي تربط الطرفين من الربي أبراهام بن زميروا إلى إمانويل الأول يخبره فيها بأن أهل المدينة في خلاف حول موضوع الحكم البرتغالي وأن الذين استنجدوا بقبائل الجهة والذين جاؤوا لمحاصرة المدينة لمدة شهر بعد هزيمتهم طلبوا الأمان الذي رفض دي أتايد منحهم إياه[2].

كما أرسل الربي إلى الملك يخبره بمشروعه وبأحداث آسفي وقد بعث بأخيه للملك كما يعلمه بأن "دييغودا ألكاصوفا" (Diogo da Alcaçova) على علاقة جيدة مع الأهالي وأنه سيتكفل بطرد مولاي زيان إذا أراد الملك ذلك[3]

في رسالة بتاريخ 12 أكتوبر 1512 بآسفي من الربي أبراهام بن زميروا إلى الملك إمانويل الأول، يخبره فيها أن ملك مراكش أعلن الجهاد بجهة الأطلس وبدرعة حشد كتائب البربر والعرب من نواحي مراكش وأن مخططه القضاء على مسيحي آسفي.

قام أتايد بإرسال رسالة إلى جواودي مينسيس بأسفي بتاريخ 28 مارس 1514 يطلعه فيها على خبر وصل إلى علمه من يهودي وهو رحيل 8 دواوير كان شيخها هوسيدي عبد الله والذين تركوا نواحي المدينة من أجل اللحاق بالعرب الذين كانوا ينتظرون ملك فاس أوقياده[4].

---

[1] ليفي (شمعون)، الجماعة اليهودية لأسفي، م .س، ص. 177.
[2] S ;I ;H ;M. port ; tome ; I ; p : 265
[3] ibid ; p : 281
[4] ibid ; p : 512

كما أن أتايد أرسل فرقا برتغالية لإغاثة المحاصرين وأن العدواي ملك مراكش لم يتجرأ خلال ثمانية أيام على مهاجمتهم وأن أتايد أدخل كل البرتغاليين إلى آسفي برجوعه إلى المعسكر بإستثناء نونيوباريكا (Nuno Barriga) وخمسون قاذفة والتي دخلت بدورها بعد يومين من خلاف يحي أوتعفوفت والعرب .

وقد تمكن أهل الغربية أثناء هجومهم على ملك مراكش من الإستيلاء على خيمته وعلى غنيمة مهمة، كما يخبره أن يحي لا يصلح للقيادة في آسفي ويعلمه بتصرفاته الغير اللائقة والتي يجب أن يعاقب عليها.[1]

يوجد بمذكرات أبراهام بن زميروا بآسفي المؤرخة ب11 شتنبر 1514 أخبار عن الخروقات التي يقوم بها يحي أوتعفوفت " إذ منذ تعيينه يتصرف كامير أوحاكم وهويقول بأن الملك البرتغالي سيترك آسفي وأن اغتيال عبد الرحمان كان خطأ كبيرا وأن إحتلال أوغزوالبلاد من طرف المسيحيين هوالعقاب وأنه يعمل (يحيي) على استيراد حكم أو هيمنة المسلمين[2] ..

وأنه إذا كان يتفانى في خدمة العرش البرتغالي فلأجل إشعارهم بالثقة واستدراج القائد والنبلاء في إرساليات من أجل التمكن منهم.

يضيف أنه عندما حل ملك مراكش بنهر أكوز قال الكثير من المغاربة أنه قام بخيانة المسيحيين وأنه كان يتراسل سرا مع ملك مراكش، بعض الرسل في "أزدور" إعترفوا أنهم حملوا إلى يحي رسائل ملك مراكش وشيخ أغمات الرامية إلى تنظيم الحرب ضد البرتغاليين خلال المعركة ففرّ يحي مع أهل الغربية .

كما قام بتحرير 500 سجين من درعة دون إذن من الحاكم وأقنع أهل الغربية بعدم أداء الضريبة المفروضة عليهم من ملك البرتغال وزعم أخذها لنفسه .[3]

---

[1] S :I ;H ;M. port ; tome ; I ; p : 356
[2] ibid ; p : 619
[3] ibid ; p : 620

عين بنفسه القياد، كما لو أنه الملك ووجد في المدينة مواجهة لمخططاته وعين فيها قائدا من طرفه وأخذ مداخيلها كملك

يخبره كذلك أن يحي جاء إلى "زرك " مرسولا من طرف القائد من أجل تحصيل ضريبة المدينة مخالفا الأوامر المعطاة وهناك ألزم سكان المدينة بالهجوم على المعسكر المسيحي الذي كان بصحبته وأنه عند دخوله المدينة أعلن نفسه ملكا، كما قام بقتل داردير وا - التاجر البرتغالي- الذي استنجد بملك البرتغال .[1]

يخبره أيضا أنه من حرض سيدي عامرة السبيطي من أجل الذهاب لمهاجمة البرتغاليين في مزكان .

ويضيف أبراهام في سلسلة الخروقات التي يقوم بها يحي أنه قتل عبد الجليل (قائد 10 قرى من دكالة) لأنه لم يكن قد عين من طرفه ولكن من طرف الملك ولأنه أخبره أيضا أنه كان يحتفظ لنفسه بالمداخيل التي يجمعها من حصة أخرى مستحقة للملك

كما أنه قام بنهب وسايس وقرى أخرى رغم أنها كانت تحت حماية الملك [2]

قام بمهاجمة أهل الشرقية وذلك للحصول على ولائهم، وكان قد قرر الذهاب عند الشياظمة تحت ذريعة إعلان الحرب على الشريف، وأنه كان يسيء معاملة الناس الذين يولون الطاعة للحاكم

يتضح من خلال هذه الرسالة التي تضمنت زخما من المعلومات المرتبطة بعدد من النقاط الحساسة، انه منح لليهود حق التصرف بكامل الحرية في اتخاذ القرارات صغيرة كانت أوكبيرة.

ولم يكتفوا بذلك بل كانوا يشون حتى بالرعايا والعمال البرتغاليين التابعين للدولة.

وكان يتراسل مع المغاربة قائلا لهم أن طريقته في التعامل مع المسيحيين لم تكن سوى من أجل أن يدفعوا مقابل الأذى الذي كانوا

---

[1] S :I :H ;M. port ; tome ; I ; p : 621
[2] Ibid ; p :620-621

قد تسببوا به للمسلمين وهذه طريقة ذكية في شرح الوضع الذي من الممكن أن يؤلب الساكنة عليه

توجد بين يدي الربي أبراهام رسالة من شيخ أغمات يشكر فيها يحي على ما فعله في قضية أكوز عندما حرر السجناء، قائلا أن يحي كان يخدم المسيحيين لخيانتهم [1]

يطلب أتايد في رسالة بتاريخ 12 شتنبر 1514 بأسفي من إمانويل الأول، أن يرسل له سليمان بن زميروا الموجود بالبرتغال، كما أخبره أن يرسل رسائل شكر ل(عبدة، سجة، الغربية) على موقفهم ضد يحي لمكاتبة القائد دون علمه [2].

وفي رسالة أخرى بنفس التاريخ يخبر أتايد فيها أن يحي قام بقتل سيدة وقتل عبد الجليل واليهودي موسى درديرووكان يريد قتل سليمان لكن إسحاق بن زميروا أرسل يحي إلى آسفي لأن يحي سيقتل أتايد أوالعكس [3] خوفا على حياة اتايد.

في رسالة مؤرخة ب 25 يناير 1515 من ألفارودي أتايد إلى إمانويل الأول بأسفي، يخبره فيها أن ملك فاس يتحضر من أجل المجيء للمنطقة وأن مغاربة ويهود قادمون من فاس ومراكش يؤكدون ذلك بما لا يدع مجالا للشك وقد أخبروا أبناء عمومتهم بذلك في آسفي ويقولون أيضا أنه سيأتي بفرق وأسلحة ومعدات غير مسبوقة وأنه يتوجب على ملك البرتغال أن يبعث بالإمدادات التي .. ستجعل من الممكن القيام بعمليات دفاعية [4].

توضح رسالة أخرى بتاريخ 26 شتنبر 1527 من يوحنا الثالث إلى مولاي مسعود: أن الربي أبراهام بن زميروا قام بايصال رسالة مولاي مسعود إلى الملك البرتغالي والمتعلقة بالمفاوضات حول السلام معه ومع ملك فاس [5].

---

[1] Ibid t :I ;p :621
[2] Ibid t :I ; p :630-631
[3] Ibid t :I ; p : 658
[4] Ibid t :I ; p : 678
[5] Ibid t II ; p :416

في رسالة مؤرخة ب 3 مارس 1527 من جون الثالث إلى شخص مجهول ما يشكره فيها على رسالته التي حملها له الربي أبراهام وسعيد لرؤيته مستعدا للسلم ولكن المشاكل التي طرأت بمملكة فاس تمنعه من إتمام الصفقة حاليا [1].

قام "سيماوكونكا فيسدا كوسطا" بإرسال رسالة بتاريخ 15 شتنبر 1529 إلى جون الثالث في سانتا كروز يقول له فيها أن عائدات التجارة (التي كان يتحكم بها اليهود) تفيد في تعزيز التحصينات البرتغالية وأن إذا لم يبع التجار اليهود سلعهم في المناطق الداخلية، لن يتمكن من تنفيذ الاتفاق مع الملك وبالتالي كل تلك الأماكن القوية التي تعتمد على عائدات هذه التجارة ستسوء حالتها وستنهار [2]

وجاء في رسالة "إيناسيونونيس" إلى جون الثالث بتاريخ 30 ماي 1541، أن سليمان بن زميروا يخبره أن الشريف كان يرمي إلى إيجاد قلاقل وتمردات ضد ملك فاس وبعد استقراره بالشاوية مع 4500 فارس تراسل طوال الوقت الذي بقيه مع أخ مولاي ابراهيم. [3]

في رسالة من الساكنة إلى إمانويل الأول بتاريخ 2يوليوز 1509 بأسفي يخبرونه بإنتهاكات العامل دازامبوجا (الدازنبوج) وتسامح اليهود والنصارى معه "فلا رأينا من عاقب عاملك ديوغ دازمبوجا على ذلك من المسلمين ولا من النصارى ولا من اليهود..... [4]

يتضح أيضا أن الساكنة هي الأخرى كانت تعي حجم المكانة التي منحت لليهود في بعض المناصب الإدارية حتى أنهم كانوا ينتظرون ان يتدخل اليهود لتوقيف تصرفات دا ازامبوجا .

---

[1] Ibid t; II ; p :434
[2] Ibid t; II ; p : 482
[3] Ibid t ; III ; p :406
[4] Ibid t; I ; p : 183

ورغم ما تعهد به الملك البرتغالي إمانويل إلا أنه لم يكن يفي بكل تعهداته ولم يكن مسئولوه ينفذون كل أوامره فقد عبر عن رغبته في تخفيض أعداد يهود أسفي وتم ذلك بالفعل فقد طرد عددا من الأسر سنة 1519 دون وجود لمبرر ودون أن يستفيدوا من أجل السنتين الذي قيل عنه من قبل [1]

ولم تكن العلاقة بين يهود المدينة الأصليين واليهود النازحين علاقة جيدة فهم من ثقافة مختلفة ولم يحصل بينهم إنسجام لذلك تضرر التوباشيم من الاحتلال وويلاته (الضرائب،انعدام الاستقرار، الإهانات ...)

وهؤلاء اليهود كانوا من اليهود الأصليين – كما سبقت الإشارة - الذين كانوا يرزحون تحت الفقر وكان يسري عليهم الوضع العام، لأنه لم يكن يستفاد منهم بالنسبة للبرتغاليين بل كانت تفرض عليهم ضرائب.

وكان برتغاليو آسفي يعاملون بعض اليهود معاملة سيئة خصوصا في فترات الأزمة أوالجوع حيث كانوا أول الضحايا.[2]

سعت الأسر الكبرى منذ أول الأمر إلى ولاء البرتغاليين فقد عاشت في رغد وخير جعلها لا تكثرت حتى للفئة الأخرى، على الرغم من أن ابراهام كان حزانا، فقد انطبع عنه أكثر من دوره التجاري والسياسي داخل وخارج المدينة، دون أن تكشف النصوص بين أيدينا عن باقي أدواره إن كانت له أدوار إجتماعية مثلا في علاقته بباقي اليهود في المدينة .

ظل العرش البرتغالي يعامل طبقة اليهود المنتمية للأسر الكبرى معاملة جيدة على الرغم من تورط بعض أفرادها في بعض القضايا كالمضاربات على حساب الجنود مثلا.[3]

---

[1] Ibid t: II ; p :222-506

[2] Ibid t; II ; p :372

[3] بنكرعى (حليمة)، ترجمة وثيقة برتغالية، القنيطرة، 2005، ص 125 / وميمون : شخص ورد في كتاب الوزان، وصف إفريقيا، ص. 152،153 أنه كان ينصح الناس بأداء الخراج للبرتغاليين "وقد نقلهم ملك فاس إلى مملكته حذرا من البرتغاليين ! بلغه أن شيخا رئيسا لفريق من المدينة (قرية قريبة من دكالة)، وقد رأيت هذا الشيخ حافي القدمين مقيدا فأشفقت عليه كثيرا لأن المسكين كان مضطرا إلى أن يفعل ما فعل ".

وليس التوباشيم من تضرر فقط لوحدهم بل حتى الميغوراشيم اشتكى بن زميروا من ملك البرتغال أنه لم يعد يفي بتعهداته تجاهه في رسالة بتاريخ 14 أكتوبر 1529 من أنطونيوليطاوإلى جون الثالث[1]

كما كتب القبطان ليطاوسنة 1530 إلى الملك جون الثالث يخبره أنه لا يجب أن يسند اليهود قضايا حساسة مثل الإستعداد لغزوالمغرب وإعتبرهم لا يفكرون إلا في أنفسهم ومصالحهم وذلك بعد أن تقوت شوكة كبار اليهود [2]

وعلى الرغم من كل هذا وفي سنة 1519 قام الملك إمانويل وبعد نهجه سياسية المكايسة مع يهود المنطقة بتغيير أرائه تجاههم فقام بطرد عائلات يهودية من آسفي بدعوى عدم صلاحيتهم وكان ذلك في نهاية عهده وإستمر نفس الموقف في عهد خلفه جواو الثالث[3].

كان إمانويل وابنه وخلفه جواوالثالث "متزمتا" وشديد العداء لليهود [4]وقد أمر عامله على المدينة نونيوألا يسمح بالخروج من المدينة لأي مسلم ولا يهودي ممن كانوا قد جاؤوا برخصة حاملين معهم بضائعهم [5]

ولما كان الوجود اليهودي ضروريا للبرتغاليين في الثغور المغربية ورغم كل ما قدمه الملك البرتغالي إمانويل من ضمانات تكفل وتضمن لهم حرياتهم فقد كان يراودهم الخوف من انتقال محاكم التفتيش إلى المغرب ومن تجديد المعاناة مرة ثانية، لذلك كانوا شديدي الحرص على الحصول على ضمانات لأنفسهم وأموالهم وقد استجاب لهم الملك البرتغالي من قبل .

---

[1] Ibid t ; II ; p :491
[2] Ibid t; II ; p 50
[3] Ibid t; II ;p : 224
[4] بوشرب (أحمد)، وثائق ودراسات عن الغزوالبرتغالي، م .س ، ص. 190 .
[5] دي طوريس(دييغو)، تاريخ الشرفاء، م .س، ص. 17.

خاصة حينما اجبر اليهود على أن يدفعوا سنة 1514 ثلاثمائة وعشرين ريالا في السنة عن كل منزل مقابل تمتعهم بحماية الدولة البرتغالية [1]

على الرغم من كل ما يظهر إلا أن الدولة البرتغالية كانت تأخذ بيسارها ما قدمته يمينها، حيث عملت على استغلال مختلف الأوضاع لصالحها

فحاول عدد من التجار البرتغاليين أواليهود ذوي الأصل الإيبيري الانفلات من هيمنة الدولة البرتغالية بوسائل متعددة، من مثل الحصول من الملك البرتغالي على بعض الاحتكارات كما هوالشان بالنسبة لأبراهام بن زميروا كما لجأ البعض منهم إلى الاتجار في المواد المحرمة من طرف البرتغاليين كالأسلحة والسلع المحتكرة من طرف الملك البرتغالي ومن هؤلاء التاجر البرتغالي:" دومينغولورنصو" [2]

وعندما خرق البرتغاليون الهدنة التي أقاموها مع السلطان السعدي واشترط تعويض القافلة التي نهبوها لإعادة الصلح، فرض القبطان البرتغالي ضريبة خاصة على اليهود التجار لدفع هذا التعويض [3]

هذا مظهر آخر للاستغلال فقد اعتبر اليهود على مدار العديد من مجريات الأحداث التاريخية مصدرا للأموال في فترة الأزمة سواء في بعض الفترات التاريخية في المغرب أوحتى في أوربا نموذج البرتغال على اعتبار مختلف الأنشطة التي كانوا يزاولون والتي كانت تسمح لهم بمراكمة "ثروات" .

لقد كان لليهود في الثغور محاكم خاصة إلا أنهم كانوا يتعرضون أحيانا مثل المسلمين لتعسفات البرتغاليين خاصة اليهود الأصليين. فنظرة المستعمر واحدة (للمغاربة ولليهود)

ويقول ليفي شمعون بان الذاكرة الشعبية اليهودية لا تتذكر الإحتلال البرتغالي ولا حمايته للأولياء وبالنسبة لها أولاد بن

---

[1] Ibid t; II ; p :391
[2] Ibid t;II ; p :475

زميروا السبعة "ما هم إلا نساك كانوا يتدارسون التوراة بالليل فابتلعتهم الأرض" [1]

يظهر من خلال هذه الشهادة أن الذاكرة الشعبية ألغت جوانب من الاحداث التي جرت "العلاقة بين اليهود والبرتغال" وحماية هذه الأخيرة لهم حسب ما تفيد المصادر الدفينة إلا أنها استحضرت دور الجانب القدسي الديني الذي لا يزال يعرف به هؤلاء الأولياء إلى يومنا هذا.

3- أنشطة ووظائف اليهود

أ- التجارة

رافق الغزوالعسكري لسواحل السهول الغربية، ولمدينة آسفي بالخصوص،غزوتجاري كبير كانت له نتائج وخيمة على أوضاع البلاد الإقتصادية، تولدت عنه تلك المكانة التي كان المغرب يحتلها داخل الإمبراطورية التجارية البرتغالية .[2]

حيث بدأت الإتصالات غير الرسمية بين البرتغال والمغرب منذ القرن 15، وقبل إحتلال أزمور وآسفي قد هم عدد من التجار البرتغاليين الذين كانوا يزاولون التجارة مع ساكنة أسفي وأجروا الإتصالات مع بعضهم لبناء دور التجارة ممهدين بذلك للإحتلال البرتغالي [3]

فلابد أن يرتبط الاستعمار بما هواقتصادي بدرجة أكبر، ومن الطبيعي أن يعمل الاحتلال البرتغالي على تعبيد الطريق أمامه في المستعمرات الجديدة

وأضحى الجنوب المغربي يمثل في نظر البرتغاليين منطقة أساسية ليس فقط لكونه منطقة إنتاج وتصدير لعدد من السلع التي كانوا يرغبون في الحصول عليها كالقمح ولكن لكونه أضحى يلعب

---

[1] ليفي (شمعون)، الجماعة اليهودية لأسفي، م .س، ص. 183 - لابد من :الاشارة الى انه من الصعب تبني اطروحة معينة في التحليل تبعا لتنوع مصادر المعلومة وصعوبة الحسم في موضوعيتها

[2] بوشرب(أحمد)، وثائق ودراسات م .س، ص. 181.

[3] S :I :H ;M ; tome : Iv: 144

دورا أساسيا في مبادلاتهم التجارية مع سكان غرب إفريقيا وانعكست هذه الأهمية التجارية التي أصبح الجنوب المغربي يكتسبها على السياسة التي انتهجوها به للتحكم فيه [1]

وقد اهتم البرتغاليون بمدينة أسفي لإعتبارات ذكرت فيما سبق وكانت أهم الشروط التي أكدت عليها المعاهدات الممضاة مع المغاربة، ضمان سلامة التجار وإعفاء التجارة الملكية من الضرائب [2]

مكنت الأدوار الإقتصادية التي لعبها اليهود في العديد من المدن كآسفي من السيطرة على الشؤون الاجتماعية للفئة وللساكنة على حد سواء كما هوالحال بالنسبة ليهود آسفي (عائلة بن زميروا) .[3]

وقد ساهم اليهود الذين إستقروا في الثغور البرتغالية في عدة مشاريع إقتصادية - مثل يهود آسفي وأصيلا - والتي تنتمي أصولهم في الغالب إلى البرتغال بشكل بارز مما جعل مثار الحديث في هذا الجانب ليس في الأرشيف البرتغالي وحسب بل حتى في الأرشيف الهولندي في فترة لاحقة .[4]

إذ لم تقتصر العلاقة في جانب دون آخر واعتبارا للحساسية التي اكتساها الشق الاقتصادي وأهميته في التواجد البرتغالي

واستفاد يهود آسفي من تخفيض قيمة الضرائب والإعفاء على السلع المجلوبة من البوادي كما منحت لهم حرية إخراج السلع برّا إلى أي مكان يودون التوجه إليه وذلك لا يشمل السلع الآتية من البحر حيث بقيت حقوقها قائمة خاصة بالنسبة لليهود الذين ساهموا في بناء التحصينات .

---

[1] بوشرب (أحمد)، وثائق ودراسات عن الغزو البرتغالي م .س، ص. 103.
Godinho ; L'économie de l'empire portugais aux XV et XVI émé siécles ;paris ; P :

[2] بوشرب(أحمد)، دكالة والإستعمار، م .س، ص. 157.

[3]Eisenbeth; p 37

[4] باكوري (محمد)، اليهود في عهد الدولة السعدية، م .س، ص. 40 - 41

وبرز ثقلهم الإقتصادي واضحا في المدينة حيث كان يوم السبت وهويوم الراحة بالنسبة لليهود أوهن أواضعف أيام الأسبوع رواجا تجاريا نظرا لإقفالهم متاجرهم ولما تضرر المسيحيون من ذلك أصبح نفس اليوم بالنسبة لهم يوم راحة [1]

ولم يكن التواجد اليهودي بمدينة آسفي حديثا أووليد كل تلك الأحداث بل كان تواجدا قديما، حيث يفيد الوزان أن الكثير من الصناع ونحومائة دار من اليهود كانت توجد بالمدينة عند زيارته لها، ويفصح هذا الرقم عن العدد الكبير لليهود فمائة دار رقم كبير للساكنة.[2]

فقد كتب "ديمياو" قبل أن نحتلها كانت مدينة أسفي تضم عددا كبيرا من القرى وكان هناك أكثر من 4000 نسمة بالإضافة إلى وجود 400 منزل يهودي وكانوا يزاولون تجارة الذهب والفضة والعسل وشمع العسل والحناء والنسيج والجلد وبضائع أخرى كان يجلبها تجار مسيحيون ومسلمون عن طريق البر والبحر [3]

وكان ملك البرتغال يجبي موردا كبيرا من الإتاوات ومن دخول البضائع الواردة إلى أسفي فكان المسيحيون واليهود والمغاربة يحصلون على أرباح طائلة على حد سواء [4]

كما كان الملك يحتكر ويمنح إحتكار البضائع التي يريد لمن يشاء، ولا يسمح للتجار البرتغاليين بالإتجار بالمغرب، إلا بناءا على ترخيص خاص منه.

فمن خاصيات التجارة البرتغالية إحتكار الملك لها والإعتماد على الوساطة اليهودية نظرا لإتقانهم التجارة وما يحيط بها [5]

---

[1] Rozenberger : les juifs au Maroc ; Hespress- Tamuda ; Rabat ; 1999 : p : 137-138-144

[2] الوزان (الحسن)، وصف إفريقيا، م.س، ص.147.

[3] ليفي(شمعون)، الجماعة اليهودية لأسفي م.س، ص. 176 -177.

[4] مارمول م.س، ص. 78.

[5] باكوري(محمد)، اليهود في عهد الدولة السعدية، م.س، ص. 70.

حيث قام اليهود بجمع الإتاوات التي يؤديها المغاربة ويحملونها إلى القائد العام بآسفي باسم الملك وكان أهل عبدة وهم أكابر دكالة يدفعون ألف حمل بعير كل سنة، نصفها قمح ونصفها شعير ويشكل حمل بعير إثني عشر كيل (حنقة) من القمح، وعشرين من الشعير[1]

وتشكل هذه الاحصائيات أرقاما كبيرة كانت تؤدى من هذا المجال، مما أدى إلى استنزافه خاصة في ظل تغير الأوضاع المناخية مما سيؤثر فيما بعد على الإنتاج وعلى المجتمع ككل

إحتكر العرش البرتغالي لنفسه بواسطة مؤسسات تجارية مختصة ك" دار لامينا" (casa da Mina) بيع السلع التي كان إقبال المغاربة عليها كبيرا والتي كانت تضمن الأرباح وترك التجار العاملين لحسابهم الخاص من برتغاليين وأجانب حق الإقبال على الثغور المحتلة شريطة أداء الضرائب الجمركية[2].

وقد ازدادت مكانة آسفي وأزمور بعد إكتشاف "أشيم ولامينيا" وبداية التعامل مع المناطق المجاورة لهما وبعد أن أصبح الملك البرتغالي يعمل على تغطية ثمن السلع المغربية ببيع سلع يرسلها إلى آسفي وأزمور وماسة، الأمر الذي زاد الرواج التجاري بالموانئ الجنوبية المغربية، فرفع ذلك من عدد التجار البرتغاليين بها .

ونظرا لتزايد إقبال البرتغاليين على السلع المغربية، وتنبههم لطاقة البلاد الإستهلاكية المهمة، إرتفعت الكميات المعروضة إرتفاعا مهولا، فلقد إرتفع عرض التوابل بنسبة كبيرة بين 1498 و1519، في حين إرتفع عرض الصمغ بين 1491 و1519 وعرفت سلع أخرى إرتفاعا كبيرا كذلك، مع العلم أن تجارة الملك التي كانت تمثل أكبر الصفقات التجارية بالمدينة كانت معفاة من

---

[1] دي طوريس(دييغو)، تاريخ الشرفاء، م.س، ص18-19 / الحنقة تساوي صاعين في فرنسا.

[2] بوشرب(أحمد)، وثائق ودراسات عن الغزوالبرتغالي ونتائجه، الطبعة الأولى، دار الأمان، الرباط 1997، ص. 9.

الضرائب الجمركية[1] كما عملوا على جلب جل سلع المناطق الداخلية نحوالموانئ المحتلة .

اشترى البرتغاليون مواد زراعية وحيوانية كاللوز والتمر والشمع والجلود والنيلة والسكر وكان القراصنة الإسبان والفرنسيون يشكلون أكبر مخاوف التجار البرتغاليين، حيث كانوا يتمتعون بجرأة كبيرة فقد إستولى قراصنة فرنسيون على مركب برتغالي كان بميناء آسفي[2] فقد تعرض البرتغاليون لتهديدات من لدن منافسيهم

ووجد اليهود البرتغاليين في الثغور المحتلة فرصة التجارة وجني الأرباح وتأدية بعض الخدمات الأخرى فركزوا جهودهم بها ونقلوا فيما بعد نشاطهم إلى الداخل خاصة بعد الإحتلال البرتغالي [3].

برزالتأثير الكبير لليهود في المبادلات الداخلية والخارجية للمغرب مع الخارج، كما أسدوا خدمات متعددة ومتنوعة لمختلف القوى السياسية التي عرفها المغرب، ساعدهم على ذلك إلمامهم بأساليب التبادل التجاري وتقنياته وتمرسهم بالمفاوضات وطرق البيع والشراء وما يرتبط بذلك [4].

كما كان اليهود يستثمرون ما توفر لهم من مال صغر حجمه أوكبر من أجل جني الربح ويتعاطون لما يعرض عنه التجار المسلمون مثل تقديم العروض بالربا أوالرهن [5].

وإنضاف تمويل المشاريع المختلفة وتقديم التسبيقات المالية الضرورية مقابل فوائد وتموين القلاع والحصون والمدن إلى باقي المهمات التي كان يقوم بها اليهود [6].

---

[1] بوشرب (أحمد)، وثائق ودراسات عن الغزوالبرتغالي م .س، ص. 183.
[2] نفسه، ص. 221.

[3] S ;I ;H ;M. port ; tome ; Iv ;P: 108
[4] Braudel(f) ; la méditiranéé et le monde .... p : 140
[5] S ;I ;H ;M. Angleterre ; tome ; I ;P: 530
[6] S ;I ;H ;M. port ; tome ; Iv ;P: 108

وبما ان التجار يحتاجون في عملهم إلى خدمات عدد كبير من المستخدمين والعمال الذين يرتبط عملهم بالمجال التجاري والذين يصعب حصرهم أحيانا وتحديد نوع وطبيعة خدماتهم فقبل أن يصل التاجر مثلا إلى المغرب. يحتاج إلى خدمات البحارة الذين يتعهدون بنقله وحمايته هووبضائعه وعند وصوله إلى الميناء يحتاج إلى خدمة أدلاء المراكب ثم الحماليين الذين يفرغون السلع من السفن أويشحنونها ، ثم ينقلونها حيث أمناء المرسى الذين يقومون بجرذها وإحصائها ووزنها كما يحتاج إلى وسيط وترجمان ليكون صلة وصل بينه وبين التجار المغاربة فكان اليهود يقومون بأغلب هذه المهمات [1]

كما كان التجار أقدر من غيرهم على مباشرة المفاوضات بين المغرب والخارج بسبب ما أشرنا إليه سابقا من مميزات وصلات تربطهم بكل الأطراف.

ويعتبر اليهود في هذا المجال مفاوضين مقبولين من لدن كل الأطراف ومن أهم الأسماء التي إشتهرت في هذا الصدد الربي أبراهام بن زميروا الذي كان يفاوض السعديين من قبل البرتغاليين [2]

وقد احتاج المفاوضون في أغلب الأحيان لمترجمين فكان موسى درديروا "مثلا" تاجرا مقيما بأسفي أثناء الإحتلال البرتغالي، وكان يشتغل أيضا مترجما [3]

في رسالة أخرى بتاريخ 3 يناير 1511 بأسفي من بن زميروا أبراهام إلى إمانويل الأول ينتظر فيها قراره الذي سيمكنه من المفاوضة من أجل إمتلاك أوشراء منزل "دا كافاليرو" (da cavaleiro) وقد بعث بأخيه (إسحاق) إلى الملك من أجل إخباره بهذا المشروع [4]

---

[1] المنصوري (عثمان)، التجارة بالمغرب بالقرن السادس عشر، م.س، ص. 385.
[2] S :I :H :M ; tome ; II:P: 323- 324- 367-482
[3] Ibid t: 305-328
[4] Ibid t I:p 281

كما كان موسى روط إبن أبراهام بن زميروا تاجرا بآسفي وإنتقل إلى أصيلا (لظروف ما) لمواصلة نشاطه التجاري بتنسيق مع أخيه يعقوب الذي أقام بفاس، لكنه إعتقل من طرف البرتغال بطلب من محاكم التفتيش البرتغالية إلى أن ثم إطلاق سراحه في سنة 1542 [1]

تدخل التجار البرتغاليين (خاصة اليهود) في الشؤون الداخلية لمدينة آسفي فقد كانت لهم صلاحيات عدة [2]

بالإضافة إلى إمتهان بعض اليهود الإسبان التجارة حيث وصلت تعاملاتهم التجارية من مدينة آسفي إلى مراكش بل تعدتها وقد تكيفت الجماعة اليهودية لمدينة آسفي وهي 150 أسرة حسب الوزان مع الأوضاع السائدة [3]

في رسالة من "جواولوبيز" إلى إمانويل الأول بتاريخ 1 يوليوز 1510 يخبره فيها أن الإتفاقية التي حصل عليها الربي أبراهام لازالت على حالها وأنه وعد الناس بالوفاء بتعهداته بعد الحصاد لكنه لم يفي بذلك لذلك فهويطلب تدخل الملك لإيجاد حل لهذه المشكلة المتعلقة بابن زميروا [4]

وهذه إشارة إلى تحكم كبار اليهود بالمدينة بزمام الأمور في الشق التجاري في بعض الأحيان، - اذ لا يمكن الجزم بذلك -

ويخبر نونيودي أتايد في رسالة مؤرخة ب 17 مارس 1511 إلى إمانويل الأول: بضرورة إرسال إمدادات بالمؤن والنقود لأن المغاربة لم يعدوا يجلبون القمح خوفا من محصول سيئ بسبب التساقطات وذلك ما سينعكس على التجار اليهود المكلفين بتجارة الملك. [5]

---

[1] S ;I ;H ;M ; tome ; Iv: P: 106-609
[2] Ibid t I: 138
[3] نفسه، ص. 177.
[4] Ibid tI:p 230
[5] Ibid t I:p 297

ويظهر بالفعل التخوف الحاصل لدى البرتغاليين من تضرر التجار اليهود، لان ذلك سينعكس على تجارة الملك.

وسلم إسحاق بن زميروا رسالة الملك إلى شخص لا تفصح الوثيقة عن اسمه في رسالة بتاريخ 29 ماي 1512 من" نونيوكاطو" إلى إمانويل الأول يأمره فيها بشراء 3000 مدا من القمح وقد تكلف هذا الأخير بتنفيدها[1]

كما نجد في رسالة من "نونيوفرينانديس دي أتايد" إلى "جواودي مينسيس" بآسفي في 28 مارس 1514 رفض ميمون(تاجر يهودي) تسليم القمح لأولاد سبيطة خوفا من غدرهم [2]

لم يقتصر دورهم على المتاجرة فقط بل أيضا على دراسة الأوضاع الاقتصادية واختيار الأنسب ورسم الخطط والعمل على تنفيذها

ونظرا لطبيعة العلاقة بين اطراف المجال (دكالة – عبدة) ففي رسالة مؤرخة بـ15 نونبر 1527 بأزمور من "ميستر رودريغو" طبيب بازمور إلى "جون الثالث"، يخبره بما يجري في أزمور فقد أصبح المكان مجال مجاعة والناس يموتون من الجوع، إذ لم يجدوا مورد الصيد الذي كان يوفر لهم ما يأكلون . وبالتالي فهويستدعي تدخل الملك لاخراج المدينة من الوضع الذي تعاني منه

والسبب أن ما تبقى لم يكن يدفع في الآجال المنتظمة، وكذلك لأنه منذ ثلاثة أعوام بعض اليهود أصحاب الضيعات المزارعين [3] قد إستفادوا من شرط في عقدهم من أجل سرقة المورادوريس (les moradores) ثلاث مرات دون أن يشتروا شينا من الأسواق حيث أنهم يشترون البضائع بدون مقابل .

---

[1] S :I ;H ;M ; tome : I:p 311

[2] Ibid t1:p 512

[3] هنا يدخل معطى جديد نوعا ما عن نشاطات اليهود فلم يشتهر اليهود قط بامتلاك الاراضي اوبامتهان الفلاحة نظرا للخصوصيات التي تميزها (عدم ضمان الربح والارتباط بالظروف الطبيعة) ولم يتعود اليهود على ممارسة مثل هذه المهن.

عندما علم الموراودوريس أن الصفقة آلت إلى بن زميروا وأن المتبقيات ستدفع كل 6 أشهر عادت إليهم شجاعتهم لكنهم عندما رؤوا أن المزارعين يتسارعون على عرض بن زميروا فقدوا الأمل من جديد [1]

ويقوم هذا الطبيب من خلال ما ورد في الرسالة بشرح الأوضاع للملك "جون الثالث"، وذلك بإعلامه بالتجاوزات التي يقوم بها اليهود دون علمه .

كما استمر التجار اليهود في القيام بمعاملاتهم التجارية، بمختلف الأشكال

ففي رسالة مؤرخة ب 6 مارس 1529 بآسفي من إسحاق بن زميروا إلى جون الثالث : يخبره فيها أنه وصل إلى آسفي في 15 يناير وانه قدم مباشرة إلى الكونتدور (Contador) وإلى العاملين العقد الذي أبرمه مع الملك وقدم ضمانات حسب ما هومنصوص عليه في ذلك العقد والفيطور (fcitor) سلم إلى إسحاق البردات التي كانت بين يديه

وتسلم إسحاق من جهة أخرى من" فاستياودا فارغاس" صاحب أومستلم أمر خزينة "لاكاسا دا مينا" (la casa da mina) باقي البردات الموجودة في التسليم الأول

فرغم وصول هؤلاء متأخرين بشهرين لن يتم تاخير الأداء وإسحاق بن زميروا يأمل أن يؤدي لهم المال المتفق عليه قبل التاريخ المحدد

كما كان من بين السلع التي تروج في مدينة آسفي وتاتي من البرتغال المعاطف او(roupa) حيث كان يتم توزيع كمية كبيرة من المعاطف في آسفي وأزمور، لأن الملك إلتزم أن يمول السوق بتلك المعاطف ولن يرى مانعا في إرسال المزيد إلى آسفي ومزكان.[2]

---

[1] S ;I ;H ;M ; tome ; II :p 418
[2] Ibid t II:p 453

وإن إسحاق سيبذل جهده من أجل بيعها، وإذا توصل بكمية معقولة بما يكفي سيوذي كل المستحقات الواجبة بأزمور.

وعلى إثر الضرر الذي لحق إسحاق بسبب المنافسة، إشترى "الفيطور" معاطف، وكان الملك قد تعهد في العقد ألا يتوصل أحد بتلك المعاطف إلا من رسى عنده المزاد وأيضا إلتزم هذا الأخير أن يوجد جميع البضاعة التي كان يحتاجها الملك وحتى إذا تجاوز ذلك الكمية المتفق عليها

ولذلك الغرض يطلب إسحاق أن يمنع موظفوا ازمور مباشرة من الشراء، ويبرر سبب عدم حديثه عن القمح الذي توصل به من طرف يحي لأنه لا يوجد بأسفي إلا موثق واحد والذي يوجد حاليا خارج المدينة [1]

وتلاحق كل هذه الأحداث لم يكن وليد الصدفة، فالحاجة إلى التمويلات كانت ملحة . فقد استغلت عائدات التجارة الممارسة في تعزيز التحصينات البرتغالية في المغرب ككل وفي المدينة بشكل خاص، إذ لابد أن تكون لهذا الاستعمار تكاليف باهضة على المستوى المادي كان على البرتغال تأديتها كما توضح رسالة مؤرخة ب 15 شتنبر 1529 من "سيماوفيسدا كوسطا" إلى جون الثالث في سانتا كروز: يخبره أنه أي بن زميروا إذا لم يتمكن من بيع هذه السلع سوف لن يتمكن من تنفيذ ما إتفق عليه في العقد مع ملك البرتغال وبالتالي كل تلك الأماكن القوية التي تعتمد على عائدات هذه التجارة ستسوء حالتها وستنهار مما يستدعي تدخل الملك لروية الامر .

كما يخبره أن هناك خطرا يتهدد الثغور في ظل هذه الأوضاع والمعلومات آتية من تجار قاديس الذين يترددون على موانئ الشريف الشئ الذي سيشكل ضررا كبيرا لملك البرتغال وأيضا للرب[2] وذلك بسبب تهريب الأسلحة التي يقومون به [1]

---

[1] S :I :H :M ; tome ; II:p 452- 453

[2] هنا يستحضر الخطاب الديني في الحديث عن مصالح اقتصادية ليكون الوقع والتأثير اكبر، وحتى يتم التدخل بسرعة، المدخل الديني ودوره في اضفاء الشرعية على كل المجالات.

ونظرا للظرفية التي كانت تمر بها الأوضاع وبسبب تأخر ابراهام عن الدفع، فقد قام "أنطونيوليطاو" بإرسال رسالة مؤرخة ب 14 أكتوبر 1529 إلى جون الثالث بازمور[2].

يخبره انه منذ أن ذهب بن زميروا من أزمور فقد قام شريكه "فرنشيسكوكوميز" بالتأدية عنه سنة 1528 والربع الأول من 1529 حيث أدى عنه الضعف كما طلب الموراودوريس من الملك أن يتفضل بإرسال ابراهام بن زميروا من البرتغال لتمر الأداءات المقبلة في أحسن الظروف [3]

وبما ان عائلة بن زميروا كانت عائلة كبيرة، ذات تفرعات، وقد راكمت ترواث وعلى الرغم من أن ابراهام كان الأكثر شهرة حيث كان يحصل على اكبر الصفقات ففي سنة 1523 حصل على إحتكار تجارة الصمغ والبردات بأسفي وأزمور من طرف الملك البرتغالي كما رسى عليه المزاد لإحتكار تجارة الأقمشة [4]

مايير ليفي: تاجر يهودي كان مقيما بأسفي وكانت له علاقات تجارية مع مراكش وفي سنة 1512 تكلف بصناعة مائة من الزرابي لحساب ملك البرتغال [5]

ويهودا أخ إسحاق بن زميروا كان تاجرا بأسفي ايضا وكان بحوزته ايضا سنة 1514 هووشريكه مايير ليفي 2000 حايك [6]

سليمان ابن أخيه هوالآخر كان من أغنى تجار مراكش بعد وصول السعديين إليها . كما كانت له معاملات مع إسبانيا والبرتغال إنتقل إليها سنة1561 وظل بها سنة كاملة وقدم خدمات للأميرة الوصية على عرش البرتغال مقابل 3700 دوكا [7]

---

[1] S ;I ;H ;M ; tome ; II:p 482

[2] فقد كانت عائلة بن زميروا تتاجر في أزمور ايضا وكان افرادها يضطلعون الى جانب اسرة الديب بأدوار طلائعية في هذا المجال

[3] S ;I ;H ;M ; tome ; II:p 491

[4] المنصوري(عثمان)، التجارة بالمغرب خلال القرن السادس عشر، م .س، ص. 458

[5] S ;I ;H ;M ; tome ; I:p 366-653

[6] Ibid t II:p 665

[7] Ibid t III ;P : 11-328

وكل هذه الأنشطة التجارية التي أصبحت داخل المدينة وخارجها توضح قول الناصري عن التجارة بأسفي خلال الفترة : "وعمرت آسفي بالنصارى وإنتقل إليها التجار وبنوبها الدور وكانوا يسقون منها الحب ويحملونه في السفن .."[1]

فقد عرفت المدينة رواجا تجاريا كبيرا خلال الفترة على اعتبار، انها بوابة المغرب، وميناء مراكش

فأصبحت آسفي مركزا تجاريا مهما لجمع المحاصيل المعروضة على البيع زيادة على الضريبة وكان الأعراب يفدون عليها يوميا أوفي بعض الايام مصحوبين بعدد من الجمال المحملة بالقمح أو الشعير [2]

ظهرت بالمدينة أهرية مختصة في شراء ما يعرض بالسوق في إنتظار إعادة بيعه كما من الممكن أن يباع للفلاح نفسه حين نفاد مذخراته أوحين الشروع في الحرث، كما يباع لوكلاء الملك حيث تسلم المشرف إسحاق بن زميروا 38 مدا [3].

وكانت الكميات التي إقتناها الوكلاء التجاريون بأمر ملكي[4] مهمة جدا في ماي 1512 [5].

بالإضافة إلى الحبوب كان يتم إقتناء الابقار، والأغنام واللحوم، بسبب جفاف 1520 إنخفضت أثمان اللحوم، وكان تزويد وكلاء الملك باللحوم يتم بالمزايدة العلنية. وإلتزم أحد اليهود وهو" يعقوب توسن" [6] بتقديم 800 ربع بثمن يصل إلى 80 ريال لكل ربع[7].

وكانت تؤدى أثمان السلع بالعملة المحلية، بينما أمر الملك بأن لا يتم الأداء إلا بالعملة البرتغالية ولكن قلة هذه الأخيرة أرغمت

---

[1] الناصري (أحمد)، الإستقصا، الجزء الرابع، م .س، ص. 141.

[2] S ;I ;H ;M ; tome ; I:p 311

[3] Ibid t II:p 244

[4] حيث كانت تقتنى السلع حسب الدفع، دون اعتبار للساكنة ولاحتياجتها

[5] S ;I ;H ;M ; tome ; I:p 311

[6] قام هذا التاجر اليهودي بالزيادة في ثمن اللحوم نظرا لملائمة الوضع لذلك حيث يحصد ربحا اكبر الشيء الذي ساهم في مراكمة الثروات

[7] S ;I ;H ;M ; tome ;II:p 240- 242

الوكلاء على الإستمرار في قبول العملة المحلية وإلتجأوا في أحيان إلى تحويلها إلى عملة برتغالية وبذلك نجد ان فئة اليهود قد إشتغلت أيضا بسك العملة [1]

هذا ولم يكتفي الوكلاء التجاريون بادوارهم التجارية فقط، بل أصبحت لهم ادوار سياسية نظرا للوزن الذي اصبح لهم فقد أملى الوكيل التجاري بآسفي على بعض أعيان الإدارة بالمدينة والذين كانوا على إتصال به بعض المواقف السياسية منها عصيان قائد أسفي وطلب إرسال الجيوش والتجار البرتغاليين إلى مدينتهم [2]

وأدت المكانة التي حصل عليها اليهود الى تقوي شوكتهم حتى اصبح من الممكن أن يمتنع التجار عن تسليم السلع إذا لم يتم تأدية ثمنها

فقد امتنع التاجر اليهودي مايير ليفي عن تسليم حياكه وحنابله إلى الملك البرتغالي إلى أن يبعث له الملك بالثمن الذي يحتاجه فقد كان يعاني الملك من نقص في المقادير الكافية من النقود والتي تسمح له بأداء كل المستحقات [3]

أمام هذا النقص إلتجأ الملك البرتغالي إلى أداء الرواتب وتحرير الأسرى بواسطة بيع سلعه وبثمنها يؤدى كل شيء ويشتري القمح وغير ذلك كما أمضى مع إسحاق بن زميروا في يناير 1529 صفقة أصبح بموجبها محتكرا للصمغ والبردات بالمغرب، على أن يقوم بأداء رواتب الجنود في وقتها وأصبحت بعض السلع تقوم مقام النقود (صمغ، بردات) [4]

وحضي الوكلاء التجاريون بالإشراف على المتجر الملكي واهتموا بكل ما يتعلق بالمبادلات: بيع السلع المستوردة وإقتناء السلع التي يرغب فيها الملك أووكلاؤه التجاريون الآخرون وكان يساعده قابض بالفيطورية .

---

[1] S :I ;H ;M : tome ; I:p: 149-471-611 612
[2] Ibid t III:p 39
[3] Ibid t I:p 366-655
[4] Ibid t I:p 259-366 t II ; 47- 425

كما كان بعض يهود آسفي إما تجارا أحرارا أووكلاء فقد عملوا على جمع السلع الأكثر رواجا وإعادة بيعها للبرتغاليين كالقمح والحنابل والحياك وكانت أسرة بن زميروا أكثر اليهود نشاطا بل وإضافة إلى ما سبقت الإشارة إليه أصبح أفرادها يحتكرون بيع الأنسجة الصوفية والصمغ ويكترون جمارك آسفي[1].

كما أصبح الإشراف على الجمارك يكترى بالمزايدة العلنية من طرف اليهود[2].

وقد أعطت الضرائب الجمركية بآسفي، ما بين يونيوودجنبر 1512 : 200 ألف ريال. ما يعطى معدلا يصل إلى أكثر من 1100 ريالا يوميا. [3]

وكان المكترون برتغاليون ويهود خصوصا من أسرة بن زميروا (ليفي مايل) بآسفي. وبلغ ثمن الكراء سنة 1520، 165000 ألف ريال. [4]

أصبح اليهودي مايل إلى جانب يهودي أخر يقومان بإنتاج وشراء كسوة الملك البرتغالي الذي كان يرسل لهم الأشكال التي يجب أن يتبعاها وكلما عجزا عن تغطية حاجيات الملك بالإنتاج والشراء، يلجآن إلى خارج دكالة كما فعل مايل ليفي في نونبر 1514 بالحوز حيث إشترى ما قيمته 300 أوقية من أنسجة "أرغين" مع أنه كان يملك في نفس الشهر 200 من الحياك و100 من الحنابل [5]

كلف الملك البرتغالي أخ أبراهام بن زميروا ومايل ليفي بشراء وإنتاج الأنسجة الصوفية المغربية [6]

قام مايل ليفي بإنتاج مائة حنبل ليبيعها للفيطور [7]

---

[1] S :I ;II :M ; tome :II: p 221-544
[2] Ibid t II:p 378
[3] Ibid t I:p 366
[4] Ibid t I:p 330-653
[5] Ibid t I:p 330-653655
[6] Ibid t I:p 366-655
[7] Ibid t I:p 366

أدى تزايد الطلب على هذه السلع بالملك إلى تكليف اليهوديين بالإنتاج في وقت عرفت فيه تراجعا للإنتاج بالمدينة مما خلق رواجا تجاريا وتمركزا ماليا يخص هذا القطاع وهذا لا يعني أنه لم يضر بالمنتجين الصغار إذ إحتكر اليهوديان السوق بأكملها[1].

في سنة 1519 إتفق الملك البرتغالي وبعض اليهود على أن يسلموه في ثلاث سنوات 9000 حايك ويظهر ذلك من خلال الرسائل التي تتضمن الإيصالات حيث بينت أن أسرة بن زميروا هي التي كانت تحتكر الشراء والبيع ما بين 1513-1519 [2].

أصبحت كذلك تجارة الصمغ في المغرب حكرا على أبناء بن زميروا الذين تعاقدوا مع الملك في هذا الشأن وقد باع إسحاق منها كميات مهمة بفاس[3].

كما جلب التجار البرتغاليون ووكلاء الملك بالمقابل إلى آسفي عددا من المواد الضرورية للصباغة وجعل منها الملك حملة تؤدى بها الرواتب وتعطى كأداء عن السلع التي تم شراؤها[4].

ونظرا لأهمية تجارة الحايك والعبائن، فقد إعتمد الملك لجمع المواد الأولية على إيجاد وسطاء ما بين المنتجين القرويين ووكلاء الملك، الشيء الذي حرم المنتجين من أرباح يستفيد منها الوسطاء.

ولم تتوقف البوادي المغربية عن تقديم الأنسجة إلى آسفي، ولكن وبسبب الإضطرابات السياسية، عرفت هذه المواد تراجعا كبيرا ويظهر ذلك في لجوء مايل ليفي إلى مراكش من أجل إقتناء ما يلزمه في نونبر 1514 [5].

---

[1] Ibid ; tome I ; p : 655- 653
[2] Ibid t II:p 242
[3] Ibid t III:p 193
[4] Ibid t I:p 366
[5] Ibid t II:p 453

وقد كانت تجارة بيع الأسرى المغاربة تجارة مربحة أيضا، وشجع البرتغاليون على ذلك. ففي ماي 1512 كان أبراهام بن زميروا يملك 4 أسرى من أولاد عمران [1]

هذا وقد ساهمت المجاعة التي ضربت المنطقة ما بين 1512-1520 في تشجيع الأشخاص على بيع أفراد من عائلاتهم مقابل ثمن زهيد.

وقد ضجر المنتجون من تعسفات البرتغاليين، نتيجة لإفراط القائمين على الضرائب في جباية المكوس وسرقة التجار البرتغاليين، فتراجع عدد الوافدين على المدينة لبيع حبوبهم كثيرا، مما حتم على اليهود الخروج إلى البوادي لشراء الحبوب هناك، وحملها إلى سوق آسفي[2].

وقد أعلن السعديون حربا تجارية على البرتغاليين قبل أن يعلنوا عليهم حربا عسكرية حقيقية فقد حاصروا أسفي سنة 1534 بعد حصار أكادير. ولم ينتصروا عسكريا إلا بعد ما هزموهم في الميدان التجاري بإفشال مخططاتهم بالمغرب وغرب إفريقيا.

فهذا الربط الجديد بين المغرب والسودان كان سببا وراء إنتصارهم عليهم بأكادير وأسفي وأزمور فوفرة ما كانت الطرق الصحراوية تضمنه للمغرب من أموال وذهب، جعلت الإهتمام بالبحر الذي كانت الظروف الطبيعية والسياسية لا تحفز على خوضه أمرا ضروريا.

وأعطى إنسحاب البرتغاليين من موانئ أكادير وآسفي وأزمور نفسا جديدا لتجارة "التهريب" جنوب أم الربيع، لأن ذلك الإنسحاب فتح في وجه التجار موانئ كبرى، ولأنه زامن كذلك، إزدهار تجارة قصب السكر، وإحياء قوافل التجارة والإستقرار في الأوضاع، خاصة بعد تحكم السعديين وإشرافهم على إعادة توحيد البلاد [3].

---

[1] S ;I ;H ;M ; tome ; I:p 309
[2] Ibid t II:p 154
[3] Ibid t III ;P: 220-223-357-362

كما يذكر مارمول كاربخال لجوء اليهود إلى مائة دار بآسفي بعد جلاء البرتغاليين.[1]

وقد كانت الأراضي المحيطة بآسفي غنية بالقمح والمواشي والتجارة لابأس بها منذ أن تركها ملك البرتغال لأن العديد من اليهود من مختلف المناطق بدؤوا يلجنون إليها[2]

كما ورد نكر بعض الأسر التي ستأتي بعد عائلة بن زميروا في المصادر الدفينة الأرشيف الهولندي[3] (أسرة آل بلاش وأدوارها في فترة مولاي زيدان).[4]

بل يضيف مارمول ان ميناء آسفي كان مزدهرا جدا، لكونه الأقرب للعاصمة مراكش، التي كانت في أوج توسعها، حوالي 1571 .

وأن عدد اليهود ذوي الأصول الإيبيرية، لجئوا إلى الميناء، من المتظاهرين بالدين المسيحي (مرّان) والذين عادوا إلى هويتهم وإيمانهم، و لم يكن هناك ميناء على نفس الدرجة من الأهمية بين سلا وأكادير بديوانته الجديدة للتجار الأوربيين مثل ميناء أسفي إلى غاية 1765 .[5]

ب- وظائف أخرى

1- جمع الضرائب
2- افتكاك الأسرى
3- الترجمة
4- أداء رواتب الجنود

---

[1] ويرجع ذلك الى توفر شروط احسن للعيش بالمدينة وتركز التواجد اليهودي والانشطة بها

[2] مارمول ' إفريقيا ، م .س، ص 71-72

[3] عرفت هذه العائلة ايضا بادوارها التجارية وخاصة في علاقة المغرب بهولندا ديبلوماسيا وتجاريا وزعيمها هوصامويل بلاش

[4] S ;I ;H :M. port ; tome ; I ; II ;III ;IV; P : 609-610-611

مارمول كاربخال، إفريقيا، الجزء الثاني م .س، ص. 71، الوزان (الحسن)، م .س، ص. 174.

[5] شمعون ليفي، الجماعة اليهودية لأسفي م .س، ص. 177.

5- المفاوضات
6- القضاء
7- الطب
8- الجاسوسية

إضطلع يهود آسفي خلال هذه الفترة المدروسة، إلى جانب دورهم التجاري، بالعديد من الوظائف، التي حتمت في الكثير من الأحيان وجودهم الشخصي داخل المدينة، والتي جعلت بصمتهم واضحة في الفترة، حيث كان من الصعب الإستغناء عنهم في بعض الوظائف الحساسة،والتي فشل فيها المسلمون والبرتغاليون على حد سواء.

وقد نجح اليهود (المقصود الفئة التي تمت دراستها من خلال الأرشيف) في التجارة بشكل لافت داخل المدينة، إلا أن ذلك لم يمنعهم من مزاولة وظائف أخرى بالموازاة، إذ نجدهم قد مارسوا: المفاوضة وجمع الضرائب وكراء حق الجباية، وإفتكاك الأسرى، وأداء رواتب الجنود والموظفين، والقيادة العسكرية، والطب الشعبي[1]، والوساطة والترجمة، وصرف النقود وغير ذلك.

وبرغم التعدد الذي يبرز في هذه الوظائف، إلا أن الجدير بالذكر أن الأرشيف يوفر من المعطيات الشيء الكثير عن التجارة .

بينما تظل المعطيات الخاصة بهذا الشق[2] عبارة عن إشارات، الشيء الذي يفرض الحديث باقتضاب عن كل وظيفة على حدة، وإن جاز تعليل ذلك فمن الأرجح أن النشاط التجاري نال الحظ الأوفر في المراسلات التي تمت بين الطرفين نظرا لحساسيته بالنسبة للطرف المحتل (البرتغاليين) .

ومن بين المهمات التي كلف بها اليهود نجد:

---

[1] توجد العديد من الاشارات الى عدة وظائف بعضها يرتبط بالشق الاجتماعي، لكن فقط اشارات حيث ندري ان بعض المهن بالفعل كانت في هذه الفترة وكان يمارسها اليهود لكن هذه الاشارات لا تسمح بالكتابة عن هذا الشق في البحث حيث واجهنا شح المعطيات.

[2] باقي الوظائف.

1- جمع الضرائب

وقد سعى البرتغاليون، من خلال تكليف العنصر اليهودي بمهمة جمع الضرائب بالحصول على مداخيل أخرى لخزينة الدولة، فقد كان لها وزنها في المعاملات، حيث كلف أبراهام بن زميروا بتحصيل الضرائب لدى القبائل القاطنة بين آسفي ومراكش [1].

والظاهر أن التكليف كان يراعي وضعية اليهودي داخل فئته، إذ كلما كبر شأن الشخص المكلف كبرت مهمته، حيث نجد أبراهام وهوكبير عائلة بن زميروا في هذه المناصب ، بينما نجد أفرادا من عائلته، يقومون بنقل جبايات الضرائب إلى آسفي من مناطق قريبة.[2]

إن الحديث عن إحتكار اليهود لهذا القطاع، لا يثنينا عن الحديث عن الأطراف البرتغالية، التي كانت هي الأخرى تقوم بهذه المهمة، نظرا لشساعة المساحة من جهة، ولتعدد إختصاصات اليهود المسؤوليين من جهة ثانية.

وقد قام الحاكم البرتغالي رفقة جيش مكون من 500 فارس برتغالي وأكثر من 2000 فارس من الأعراب سنة 1514، بجمع الضرائب ما بين مراكش و سوس.[3]

وكان اليهود يحملون هذه الضرائب المفروضة على السلع، إلى القائد العام بأسفي، حيث يحملها بدوره إلى البرتغال [4].

كما حصّل الملك البرتغالي، بفضل مداخيل جمارك بعض الموانئ، مداخيل بلغت خلال 6 أشهر - يونيو/ دجنبر 1512- 200.000 ريال [5]. مما شجعه على جعلهم المشرفين على الضرائب نظرا للنجاح الذي حققوه.

---

[1] S.I .H.M. Archive portugais ,tome II, P: 345 -348-349

[2] Ibid t II, P443

[3] الوزان (الحسن)، وصف إفريقيا، م .س، ص. 151.

[4] دي طوريس(دييغو)، تاريخ الشرفاء، م .س، ص.18-19 .

[5] بوشرب(أحمد)، وثائق ودراسات عن الغزو البرتغالي، م .س، ص. 183.

اليهود يشرفون على الأمكاس والجبايات وإصدار السكة كما اشتغلوا بالصرف إلا أن أهم الأدوار الاقتصادية لعبها اليهود النازحون[1] من شبه الجزيرة الإيبيرية فقد جاؤوا بخبرة وصناعة مهمة[2].

2- افتكاك الأسرى

وقد انضاف الى جانب مهمة جمع الضرائب عمل آخر إكتسى هوالأخرطابع الحساسية فقد قام اليهود أيضا بإفتكاك الأسرى البرتغاليين من يد المسلمين (القواد المحليون)، وخاصة بين سنتي 1523و1526، وقد باشر هذه المفاوضة الصعبة: التاجر اليهودي أبراهام بن زميروا رفقة عائلته (خاصة إخوته)، وقد كللت جميع محاولاته بالنجاح.[3]

لقد إعتبر الأسرى في هذه الوظيفة، بالنسبة للطرف المحتجز، - بضاعة من نوع خاص- ، حيث كان أبراهام وهو يفاوض ذلك الطرف، يقوم بالإتفاق معه على ثمن الفدية، بالعمل على إرضاء الطرفين ويظهر في أحيان كثيرة حياده .[4]

ونظرا للأموال التي كان يتم تداولها في هذا النوع من العمليات، فقد كان الطرفان، يشترطان في الشخص المكلف، أن يكون ثقة، كي لا يفر بثمن الفدية من جهة، وكي لا يميل كفة طرف على كفة الأخر من جهة ثانية.

في غشت 1526 عندما أراد الملك تحرير باريكا أرسل لأبراهام بن زميروا سلعا غطت قيمتها الفدية ليقوم بذلك[5]

هذا ما أدى باليهود إلى إحتكارها، وإلى البروز كمتخصصين في هذا المجال، فبالإضافة إلى أبراهام نجد أخاه إسماعيل[6]، الذي كان يزاول التجارة إلى جانب ذلك .

---

[1] حيث كانوا يولون الاهتمام لبعض الصناعات كصناعة السكر والأسلحة

[2] Slouche ; Etude sur l'histoire des juifs au maroc ; Archives marocaines vol VI ; 1906 ; p : 151

[3] S.I .H.M. Archive portugais , tome II, P313-323-367

[4] Ibid t III, P227- T IV P : 155

[5] Ibid t.tome II, 372

[6] Ibid t II, P -323-348-371

فمن الضروري أن نشير إلى الدور الفعال الذي قامت به التجارة في تبسيط الطريق أمام باقي الوظائف، لأنها عرّفت بالأشخاص، وجعلتهم على علاقة جيدة بمختلف القوى، مما إختصر الكثير من الجهد على هذه الفئة، وجعلها تستفيد على عدة مستويات، وخاصة في أوقات الذروة (أثناء المعارك بين المسلمين والبرتغال داخل المجال).

3- الترجمة

كما برع اليهود في وظيفة بالأهمية بما كانت في تلك الفترة، فالترجمة كانت وظيفة حساسة ومفصلية في تعامل اليهود مع أهل المنطقة وفي نجاحهم في مهامهم ما لم يتمكن من انجازه المسيحيون من قبل .

حيث كان يعمل جل المترجمين اليهود، داخل وخارج المدينة، وفي المفاوضات، وعقد الصفقات، كما وإحتكرت عائلة بن زميروا أيضا هذا القطاع.

حيث نجد يعقوب روط[1] الذي عين في 7 يوليوز 1523[2] بمدينة أسفي وموسى درديروا.[3]ويحي الذيب (يهودي من أزمور)، ويوسف ليفي إبن إسماعيل بن زميروا[4] وهذه بعض الاسماء فقط التي افصحت عنها الوثائق ومن المرتقب ان تكون اكثر من هذا، تماشيا مع عدد التجار والمناطق وحجم المبادلات

وقد تقاضى اليهود على هذه المناصب، زيادة على المكانة التي كانوا يحتلونها، رواتب هامة، حيث تقاضى "موسى دارديروا" عن الترجمة بالمدينة 6400[5] ريال سنويا [6].

---

[1] Serfaty (Nicolas) ; Les Courtisans juifs des soultan marocaines XIV -XVIII Siécles ;paris ; 1999 ; P : 124

[2] S.I .H.M. Archive portugais .tome III, P413

[3] Ibid t I. P305 -328

[4] Ibid t; III. P 137-416

[5] نظرا لاهمية هذه الوظيفة وحساسيتها فقد شكلت مصدرا للاغتناء فقد ساهمت ثقافة هذه الفئة ومعارفها القبلية وحتى المكتسبة في الارض الجديدة الى سرعة تكيفها واستفادتها من الاوضاع.

[6] S.I .H.M. Archive portugais ,tome; I. P609-

ومن الواضح أن حجم الإستفادة من هذه الوظيفة، لم يقتصر على الجانب المادي والإجتماعي، بل شمل مجمل العلاقات ما بين البرتغاليين وما بين المترجمين، وهذا يرجع بالأساس إلى الجانب العلمي- الثقافي، لهذه الفئة دون غيرها من اليهود الأصليين، مما أعطاهم حق إحتكار هذا الميدان بطريقة سلسة .

وقد كانت هذه الوظيفة، داعما لقبول وجود الطرف اليهودي في المحادثات، وفي مفاوضات السلام، وذلك ما قام به "ليطاو" [1] الذي قام بارسال أحد أقرباء بن زميروا(لم يذكر إسمه)، والذي كان مترجما، رفقة "دورات لوبيز" للتفاوض مع الشريف . [2]

كما ساهم المترجمون إلى جانب ذلك كله، في كتابة التقارير التي ترسل إلى الحاكم، وذلك ما نجده في رسالة "نونيودي أتايد"[3] إلى الملك إمانويل الأول، في 27 ديسمبر 1514 يخبره فيها، أن أخاه "ألفاروا"، يبحث حول تصرفات يحي وقد قام إسماعيل بن زميروا بدور مترجم، لمساعدته في ذلك[4] .

4- أداء رواتب الجنود .

أما فيما يخص أداء رواتب الجنود، وهونوع آخر من الوظائف التي إضطلع بها يهود هذه المدينة، والتي لم تنحصر فيها لوحدها، بل وكانت إسهاماتهم إلى جانب الملك، داعمة له في أوقات الشدة (في بعض الأزمات التي لا يتوفر فيها للملك المال).

حيث كان هؤلاء يدفعون رواتب البرتغاليين – جنودا وموظفين-، على شكل تسبيقات يعوضون عنها فيما بعد. ولأن جل الوظائف إحتكرت من طرف عائلة بن زميروا، لم تخرج هذه الوظيفة عن سابقاتها[5].

---

[1] قائد برتغالي حاكم بسانتا كروز حسب ما ورد في بعض الرسائل والتي كانت تصدر كلها من سانتا كروز .

[2] S.I .H.M. Archive portugais ,tome III, P438

[3] نونيودي أتايد، حاكم برتغالي على مدينة أسفي كانت له علاقات متشابكة جيدة مع اليهودي أبراهام وسينة مع يحي أوتعفوفت.

[4] S.I .H.M. Archive portugais ,tome II, P667

[5] Ibid t III, P143

وقد سبب غياب أبراهام بسبب زيارة إلى البرتغال، إضطرابا في هذا الصدد، حيث قام" فرنشيسكو كوميش"[1] وهوشريك أبراهام، بدفع رواتب الموظفين في أزمور نيابة عنه[2]

كما قام "إسحاق بن زميروا" في يناير 1529، بإمضاء عقدة مع الملك تم بموجبها إحتكاره للصمغ والبردات، مقابل أدائه رواتب الجنود في وقتها. [3]

وبسبب سجن بن زميروا، ظهرت مشكلة أخرى في مدينة أزمور سنة 1530، حيث أضحت المدينة تعاني البؤس والفقر والمجاعة، لأن المستحقات لم تدفع مدة سنة كاملة في الرسالة الموجهة من: "بيدروا ماسكرينهاس" إلى الملك يوحنا الثالث، فبنود العقد، تنص على كونه الوحيد القادر على الأداء كله، وأنه لا يمكن لأي شخص تحمل المسؤولية مكانه [4].

5_ المفاوضات

كما نجد اليهود قد شغلوا مناصب أخرى من مثل: المفاوضات، وقد برز ثقلهم في تسييرها. وذلك ما تعبر عنه الوثيقة المؤرخة ب 23 أبريل 1528 في سانتا كروز من" أنطونيوليبطاودي كامبوا" إلى يوحنا الثالث. والتي يخبره فيها، أنه وصل إلى سانتا كروز في 28 فبراير 1528.

فبعيد مجينه قام هذا الأخير بالمرور عن طريق "دورات لوبيز" الذي طلبه الملك، وقد أرسل معه "الملك" عربونا على السلام بينهما كما بعث بقياد ونبلاء إلى قصره، هذا الأخير كان يرغب في علاقات ودية معه ليرسل ليطاوا رجلا[5] يمكنه التفاوض معه [6]

كان يتولى مايير ليفي[7] المفاوضات 1523 باسم البرتغاليين مع السعديين لإطلاق سراح أمير برتغالي.

---

[1] تاجر برتغالي، كان مقيما بأزمور، سنة. 1529.

[2] S.I .H.M. Archive portugais ,tome II, P330- 490 – 493

[3] Ibid t I, P259- 366

[4] Ibid t III, P : 536

[5] كان رجلا يهوديا.

[7] وهوتاجر من عائلة بن زميروا.

قام كذلك أبراهام بن زميروا بتولي مهمة المفاوضات مع المغاربة، وظلت علاقاته جيدة مع الجميع، فقد لعب دورا في عقد هدنة مولاي أحمد السعدي سنة 1525 [1].

كان الدور الذي لعبه أبراهام بن زميروا وأخواه إسماعيل وإسحاق كبيرا إلى حد أن الوساطة بآسفي إقتصرت على هذه الأسرة فقد إستطاع إسحاق الحصول على حياد الناصر الهنتاتي وقبائل الشرقية حين الهجوم الثاني على أزمور مما سهل سقوط المدينة وهوالذي دفع أتايد إلى الهجوم عل السعديين بعد إستقرارهم بالشياظمة [2].

إستطاع كل من أبراهام ويحي الذيب بأزمور الحصول على ثقة القبائل التي كانت تطالب أحيانا بحضورهما[3] حين المفاوضات[4].

وابرز ابراهام في احدى الرسائل انه ينتظر قرار الملك الذي يمكنه من المفاوضة في هذا الشأن كما يطلب الربي رسالة تسليف أوتموين من الملك من أجل إدارة المفاوضات مع المغاربة، كما طلب منه أن يعامل من طرف دي أتايد كخادم لصاحب السمو[5].

كما كان أبراهام وإخوته على إتصال مستمر بالملك وكلف أبراهام بالتفاوض مع الشريف السعدي بعد دخوله مراكش وتضييقه الخناق على آسفي [6].

6- القضاء

ولم يكن مجال القضاء مجالا بعيدا عن وظائف اليهود، إذ لم يكن بالإمكان تسيير ميناء مكون من 2000 الى250 000 نسمة، في مدينة كآسفي، دون أخذ بعض التدابير السياسية، وبذلك قامت

---

[1] المنصوري (عثمان)، التجارة بالمغرب خلال القرن السادس عشر، م .س، ص. 458.
[2] S.I .H.M. Archive portugais ,tome III, P572
[3] اصبح المغاربة انفسهم يطالبون بحضور اليهود نظرا للشهرة التي اكتسبوها في المفاوضات
[4] S.I .H.M. Archive portugais ,tome II, P204
[5] Ibid t I, P : 281
[6] Ibid t I ; P281

الدولة البرتغالية بتعيين الربي أبراهام بن زميروفي منصب القاضي[1].

وهذا المنصب يشمل البث في القضايا ذات الشأن الإقتصادي، أكثر من باقي القضايا، بحكم درايته أكثر من غيره بهذه القضايا .

7-الطب

ولم يترك اليهود الطب، خاصة الشعبي فالذاكرة الشعبية اليهودية، تحتفظ كما قال "شمعون ليفي" ب-العجيب والخارق- من التداوي وحكايات الشفاء التي أدت الى شهرة محج ابن زميروا – وكان أبراهام طبيبا في الأصل-، فقد كان يتردد عليه يهود ومسلمون.[2]

في تلك الفترة كما في فترات لاحقة بعد ذلك[3]، وقد عرف اليهود بإتقانهم لهذه المهنة، وذلك ما تدعمه رواية تتحدث عن شفاء مسلمين زاروا الضريح، وقد أوردها شمعون ليفي وغيره .[4]

كما يحكى أنهم كانوا يقومون بشفاء المجانين واستعمال سكين المعجزات - في الحلم- وإحالة المريض إلى الولي الموجود بأزمور إذا لم يتوفر لأولاد بن زميروا الدواء.[5]

8- الجاسوسية

كما لعب اليهود إلى جانب كل ما قيل دورا فعالا في الحفاظ على التواجد البرتغالي في المدينة، في رسالة مؤرخة ب3 يناير 1511 من "نونيودوكاطو" إلى" إمانويل الأول" يعلم فيها "نونيو"

---

[1] DeGois (Damiao) ; Les portugais au maroc de 1495 a 1521 Rabat ; 1937/ 178-177 ليفي(شمعون)، ص

[2] ليفي (شمعون)، الجماعة اليهودية لأسفي، م.س، ص. 183.

[3] الى يومنا هذا لازال الضريح يحظى بقيمة خاصة لدى اليهود وقد اتضح لنا ذلك من خلال قراءة ما كتب عنه وكذا من زيارة الضريح حيث يتردد عليه اليهود من كل انحاء العالم بل وتقام به الهيلولة في غشت من كل سنة .

[4] كما إشتهروا إلى جانب الطب بباعهم الواسع في السحر وذلك ما لا تفصح عنه المصادر بحكم طبيعة الموضوع وإن كانت بعض الإشارات فهي لا تخص المدينة وإنما يكون الحديث عن الموضوع بشكل عام . بينما تحتفظ الذاكرة الشعبية بهذه الوظيفة وفي أحيان كثيرة تجعلها لصيقة بهذه الفئة.

[5] ليفي (شمعون)، م.س، ص. 184.

الملك أن مدينة آسفي ساحة معركة وأن نونيودي أتايد قد خرج لمهاجمة الغزاة .

كما قام كاطوبوصف دقيق لخطة المواجهة وللقياد العسكريين واخبره أن في قطاع " نورنها دي رودريغو" يوجد اليهود تحت إمرة "اسحاق بن زميروا" و"مايل" الخدمة والقيادة العسكرية[1]

في رسالة مؤرخة ب29 ماي 1512 بآسفي من نونيودي كاطوإلى إمانويل الأول يخبره فيها أن إسحاق بن زميروسلم رسالة الملك إلى شخص مجهول.

وفي بلاغ مؤرخ ببداية 1513 ضد يحي أوتعفوفت ينصح شيخ الغربية بن يهودا[2] أربع زوجات بالذهاب عند يحي أوتعفوفت"شيخ القبيلة[3]

ورد في رسالة مؤرخة 1527 من مسعود بن ناصر إلى "الكونط لينهاريس"

يظهر فيها دور الوساطة في تبليغ مضامين الرسائل عن طريق أبراهام بن زميروا حيث يقول "... وقد وصلنا اليهودي ولا رأينا منكم معه كتاب .....ونحن كتبنا للسلطان جواب كتابه مع أبراهام الحزان اليهودي ونحن منتظرين وبعدن (بعد ذلك) يجيب الجواب"[4]

كذلك في رسالة أخرى بتاريخ 4 مارس1528 من الكونط دولينهاريس إلى أحمد العطار يخبره فيها بسعادته أنه توصل من الربي أبراهام بن زميروا بخبر سار حيث يقول: "كثير الغروالحشم.. نعلمك بأن كثير فرحت نرا كتابك وبي أعراف الخير منك الذي أعطاني ربي (الحاخام) أبراهام" [5].

في رسالة مؤرخة ب 30 ماي 1541 من" إيناسيو نونيس" إلى يوحنا الثالث بآسفي

---

[1] S.I .H.M. Archive portugais ,tome I, P : 271

[2] هنا اشارة الى تولي هذه الشخصية وظيفة حساسة حيث كان شيخا، وبما انه على علاقة بالاستعمار فقد يتم تبادل المعلومات في هذا الصدد.

[3] S.I .H.M. Archive portugais ,tome I, P: 378

[4] Ibid t II, P: 412-413

[5] Ibid t II, P434- 435

فقد حصل" إيناسيو" من اليهودي سليمان بن زميروا[1] ابن اخ أوأخت أبراهام الذي أتى من مراكش على وجه السرعة من أجل إخباره معلومات عن المغاربة لأن المغاربة وخاصة الشرفاء يثقون في اليهود [2].

كلف بعض اليهود الى جانب كل ما سبق الإعتناء بالأعيان حين إقامتهم بأسفي على نفقة القبطان [3].

كما كلفوا بإصطحاب الأعيان الذين يرسلون إلى البرتغال للإتصال بالملك وبالوساطة لدى القبائل والتفاوض معها بشأن الخضوع وشروطه[4].

ولعب داردیروا في هذا الصدد دورا مهما جعل كلا من القبطان والكونتدور ينوهون به.

---

[1] يوصف هذا الشخص في هذه الوثيقة بأنه رجل ثري ومنطقي ومعقول.
[2] S.I .H.M. Archive portugais ,tome III, P406
[3] Ibid t I, P173 t II; p: 321
[4] Ibid t I, P309 – 351

خاتمة:

نخلص الى القول بأن الحديث عن تاريخ الاقليات بالمغرب، ارتبط بدون شك بفئة أكثر من غيرها، فالمضطلع على حجم الدراسات المنجزة يعلم ان الجماعة اليهودية قد استأثرت بنصيب الاسد في هذا الصدد، وذلك يرجع بالاساس الى كونها الفئة الوحيدة التي عاشت في مختلف ربوع الوطن، وعلى الامتداد الزمني للدول.

اذ كان تواجدها ذا بصمة خاصة لا يجعل الدارس لأي فترة تاريخية يمر دون أن يشير اليها من قريب اومن بعيد، في احيان كثيرة فاعلة في المجال وحوله، وأخرى مفعولا بها، استجابة لما تمليه الظروف . واذ نتحدث عن فاعليتها، نستحضر نموذج يهود أسفي الذي من الممكن القول عنه بعد كل ما توفر من معلومات، انه متميز لا تشبهه في الكثير من حيثياته نماذج اخرى داخل المغرب .

خصوصيات المرحلة وطبيعة العلاقات التي جمعت بين مختلف الاطراف، وتلاحق الاحداث وسياقاتها، كانت في غالب الاحيان تملي على كل طرف على حدة طريقة التصرف. تداخل وتعقد المهام التي اختار اليهود القيام بها اوامليت عليهم، دون الغوص في الحيثات، يجعل من الصعب التعميم .

طبيعة الروابط التي جمعت بين مختلف الفئات (اليهود فيما بينهم- البرتغال - الساكنة .....)، تجعل من المستحيل ايجاد الميكانيزمات المتحكمة فيها، فايجادها يتطلب اتخاد المسافات الحقيقية من الاشياء، وهذا ما تطبعه النسبية.

هذا وتنبغي الاشارة الى ان اعتماد المقاربة ذات البعدين الاقتصادي والسيسي في دراسة هذه الجماعة وبالرغم من حجم التحديات والمتعلقة بالاساس بالمادة المصدرية لا يثنينا من الحديث عن البعد :الاجتماعي والذي يعتبر من اهم المداخل.

فالمدينة توفر من المعطيات المادية ما يسمح بقيام دراسة وازنة، من شأنها الكشف عن عدة معطيات ولا ادل على ذلك من

وجود مقبرتين وأضرحة وعدد كبير من المساكن ترجع للفترة حسبما تشير الى ذلك بعض الكتابات .

ويطرح هذا الشق من الاشكالات الحقيقية الكثير، خاصة في ظل غياب المادة المصدرية فدراسة هذه الفئة لا يتم بشكل اقرب الى الشمولية دون المرور عبر كل المداخل .

وبدل التوقف عند اعتبار هذه الخاتمة خلاصة للبحث لما لا نعتبرها نقطة الانطلاق والركيزة التي يمكن ان نبني عليها ابحاث اخرى في المستقبل.

لائحة المصادر والمراجع باللغة العربية

- ابن عذاري(المراكشي)، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، بيروت، 1948
- البكري (أبوعبيد الله)، المغرب في ذكر بلاد إفريقيا والمغرب، طبعة دوسلان، 1957
- الناصري (أحمد)، الإستقصا، الدار البيضاء، الجزء الأول، 1954 .
- الحموي (ياقوت)، معجم البلدان، دار صادر، بيروت، الجزء الأول 1979
- الإدريسي (الشريف)، نزهة المشتاق في إختراق الآفاق، تحقيق محمد حاج صادق، طبعة بلجيكا، 1983
- الوزان، (الحسن)، وصف إفريقا، الجزء الأول، ترجمة محمد حجي، محمد الأخضر، الطبعة الثانية، 1983
- كاربخال، (مارمول)، إفريقا، ترجمة محمد حجي، محمد زنيبر، محمد الأخضر، أحمد التوفيق، أحمد بن جلون، الجزء الثاني، دار النشر للمعرفة، 19
- الصنهاجي الحميري(محمد بن عبد المنعم)، الروض المعطار في خير الأقطار، تحقيق : إحسان عباس، طبعة لبنان، 1984
- إبن الخطيب (لسان الدين)، نفاضة الجراب في غلالة الإغتراب، المغرب، 1985
- الزعفراني (حاييم)، ألف سنة من حياة اليهود بالمغرب: تاريخ ثقافة، دين، ترجمة : أحمد شحلان، عبد الغني أبوالعزم، الطبعة الأولى، الدار البيضاء، 1987 .
- ندوة، أسفي : دراسات تاريخية وحضارية، الرباط 1989 .
- بوشرب (أحمد)، المغاربة والبحر خلال النصف الأول من القرن السادس عشر، مجلة بحوث، كلية الآداب والعلوم الإنسانية: المحمدية، العدد 4، 1991
- ابن خلدون (عبد الرحمان)، تاريخ بن خلدون، بيروت، الجزء السادس 1992
- بوشرب(أحمد)، وثائق محاكم التفتيش، مصدر من مصادر تاريخ الثقافة والعقليات بالمغرب خلال القرن السادس عشر، مجلة بحوث، كلية الآداب والعلوم الإنسانية المحمدية، العدد 5، 1993

- بوشرب (أحمد)، دكالة والإستعمار البرتغالي إلى سنة إخلاء آسفي وأزمور، دار الثقافة، 1999
- ندوة، تاريخ إقليم أسفي من الحقبة القديمة إلى الفترة المعاصرة، مؤسسة دكالة - عبدة للثقافة والتنمية، الطبعة الأولى 2000
- المنصوري (عثمان)، التجارة بالمغرب في القرن السادس عشر : مساهمة في تاريخ المغرب الإقتصادي، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 2001 .
- أنطونا (أرمان)، جهة عبدة، ترجمة علال الركوك، محمد بن الشيخ، جمعية البحث والتويق والنشر، الطبعة الأولى، 2003
- كريدية (إبراهيم)، أمثلة من مجاعات وأوبئة وكوارث ضربت آسفي وباديتها منذ الإحتلال البرتغالي وحتى أعوام البون، أسفي 2004
- كريدية (إبراهيم)، صفحات من تاريخ يهود آسفي، الطبعة الأولى، 2004
- بالوز، (محمد)، صفحات من تاريخ آسفي، جمعية البحث والتوثيق والنشر، االرباط، الطبعة الأولى، 2004
- الكانوني (محمد)، أسفي وما إليه قديما وحديثا، الطبعة الأولى، 2004
- باكوري، (محمد)، اليهود والمخزن في عهد الدولة السعدية، أطروحة لنيل الدكتوراه في التاريخ، 2004
- ندوة، الوجود البرتغالي فى المغرب وأثاره، آسفي، 2004
- كريدية (إبراهيم)، بصمات المحيط الأطلسي في تاريخ وعمران حاضرة أسفي، جمعية أسيف لحماية الثراث الثقافي والمعماري، الطبعة الأولى، 2008
- كريدية (إبراهيم)، حفريات في تاريخ مقابر أسفي وإقليمها: المقابر بأسفي تاريخ وتراث، الطبعة الأولى، 2010
- زيارة ميدانية مارس 2012
- أكنوش (عبد اللطيف)، تاريخ المؤسسات والوقائع الإجتماعية بالمغرب، إفريقيا الشرق، د.ت
- بنكرعي (حليمة)، ترجمة وثيقة برتغالية مصدرها الخزانة الوطنية البرتغالية بلشبونة، ، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالقنيطرة .

لائحة المصادر والمراجع باللغة الفرنسية

- DECHNIER(M) ; histoire de l'empire de maroc ; 3 tome ; paris 1652
- Doutté (edmond); Merrakech ; paris 1905 .
- Les sources inédites de l'histoire de maroc ; tome 1.2.3.4.5.6 ; archives des pays –bas ; 1906
- GOULVEN(joseph); safi au vieux temps des portugais; lisoba ; 1938
- Eugéne (aubin) ; le maroc d'aujourd'hui ; 7 eme edition ; paris ; 1912
- Les sources inédites de l'histoire de maroc ; tome 1.2.3.4.5. ; archives de Portugal ; 1934
- Encyclopédie de l'islam; tome 1 ; A -B ; PARIS ; 1960
- Maroc ; les guides bleus ; 2éme edition ; hachette ; 1987
- Doutté (edmond); mission au maroc en tribu ; paris ; 1994 .
- DEGENIVAL (pierre); tatouages des prisoniers marocaines ; tone V ; 1995
- Assraf (robert) ; mohammed V et les juifs du maroc a lépoque de vichy ; plon ; 1997
- Deverdun (gaston) ; Marrakech des origines a 1912 ; casablanca ; 2004
- Benhima (yassir) ; safi et son térritoire : une ville dans son espace au maroc ; (11-16 siécle) ; paris 2008 .
- DEGENIVAL(pierre) ; la légende du juif iben méch'al et la fete du sultan des tolbas
- Conseil de la communauté marocaine a l étranger et conseilnationaldesdroits de l homme ; la bienvenue et l'adieu : migrants juifs et musulmans au magreb XV-XX siécles . volume 1-2-3 ; edition : la croisee des chemins ; 2012.
- De périgny (maurice) ; au maroc : Marrekech et les ports du sud ; nouvelle edition ; paris ; s.d
- Zimerman (maurice) ; villes et paysages au maroc ;

ملحق رقم 1

جرد لأهم الرسائل المعتمدة في البحث بالارشيف البرتغالي للمصادر الدفينة بموضوعها السياسي والاقتصادي

الشق السياسي	الشق الاقتصادي
04mai 1509	27février 1510
05 décembre1510	1er juillet1510
03 janvier 1511	03 janvier 1511
12 octobre 1512	17 mars 1511
Début de 1513	29 mai 1512
28 maes 1514	25 mars 1514
11 septembre 1514	27décembre 1514
12 septembre 1514	15 novembre1527
12 septembre 1514 (02)	03 avril1528
25 janvier 1515	06 mars 1529
26 septembre 1527	15 septembre 1529
03 mars 1528	14 octobre 1529
04 mars 1528	20 juin 1530
03 avril 1528	------1542
30mai 1541	

ملحق رقم 2[1]

أيدمون عمران المليح

المفكرالمغربي الأسفي



صورة للمحتفى به يوم تكريمه

[1] - نص المداخلات التي ألقيت في حفل تكريم الأديب إدمون عمران المليح يوم 2008/6/27 بكلية علوم التربية الرباط والذي أقامته جمعية البحث والتوثيق وجمعية حوض أسفي. وقد ارتأينا نشر هذه المداخلات ضمن هذا العمل نظرا لوحدة الموضوع.

مديح الانتماء تكريما للمبدع البهي: إدمون عمران المليح

مصطفى محسن*

(نص الكلمة التي ألقيناها في الحفل التكريمي الذي أقامته (جمعية حوض اسفي) فرع الرباط احتفاء بالكاتب الكبير : إدمون عمران المليح، وذلك يوم 2008/06/27 بكلية علوم التربية بالرباط لذا وجب التذكير والتنويه).

أيها الأحبة، أيها الحضور الكرام، طيب الله أماسيكم بكل خير.

هاهوشملنا، أيها الأعزاء، يلتئم من جديد لنقتنص عنوة من عناد الزمن المتمنع الهارب منا، لحظة الفرح المجنح هذه، لنعلن الرفض جهارا لكل ما يباعد، يفرق، ينسي، ينيم- ولوإلى حين - ما يعتمل في الدواخل من مشاعر ولواعج وذكريات...

نلتقي هنا، كما عودتنا على ذلك جمعيتنا الفتية المناضلة (حوض اسفي) لنكرم بعض أبناء مدينتنا المخلصين البررة، ننتزع هذا (الحوض) من قيود وعوارض الزمان والمكان، لنحمله إلى الهنا والآن، والى ما فوق التحديدات والتخوم المادية المحسوسة، ولنسكنه في الفكر والقلب والذاكرة حضنا سخي العطاء وفيضا من حب متوهج على الدوام.

هكذا يند المكان عن أن يظل - كما عبرت عن ذلك في نصوص سابقة - مجرد فضاء، مساحة للعيش والتساكن والعمل والأمل والأحلام ... ليغدوقبسا نوراني التكوين، يسكننا في كل أزمنة وأمكنة الإقامة والظعن وآناء الحل والترحال ... هكذا هي اسفي كما اعشقها، رغم البعاد. تقيم في خلدي معنى ساميا، بعراقة تاريخها، بحاضرتها وريفها بثقافة وعادات وتقاليد البحر المتأصلة

* - عالم الاجتماع وكاتب/ الرباط

فيها، بأهلها الودعاء الطيبين، بمناخها عذب الفصول والنفحات، وبكل ما ينضج منها من قيم النضال والكد وبهاء الوطنية الصادقة.

غير أن فرادة هذه اللحظة بالذات، خصوصيتها وبهجتها المتميزة الباذخة ستظل في ذاكرتنا الجماعية وفي سجل جمعيتنا، علامة بارزة فارزة. ذلك أننا نحتفي فيها بهذا الألمعي الفذ المفكر الأصيل رجل المبادئ والقيم الوطنية والإنسانية النبيلة: إدمون عمران المليح، هذا الأديب والكاتب المقلق، الذي زف إلى العالم كله مدينته والوطن بكامله على صهوة جماليات وإبداع فكري وأدبي طافح بمعاني المحبة والإخاء والتعاون والتسامح والتفتح والحوار واحتضان جميع ألوان التعدد والاختلاف والتنوع البشري الخلاق...في الفكر والمعتقد والسلوك والجنس واللون والموطن والموقف والانتماء...

لذا لم يكن غريبا على وطنية وأصالة إدمون عمران المليح أن يعشق في وطنه مسقط الرأس، وان، يجعل منه موئل العودة الظافرة، بعد أن ألقت به عواصف الغربة - ولعقود من الزمان- بعيدا عن مرتع الصبا وموطن الأهل والأحبة والرفاق، يكابد في مكابرة وجلد وأناة، أهوال منافيه الاختيارية والقسرية منها على السواء، كان الوطن قد استقر في الصميم وتغلغل في أغوار الوعي واللاوعي من شخصية إدمون عمران المليح فوسم بميسمه الهوية والثقافة واللغة والذاكرة ونمط العيش ورؤية المفكر والأديب للذات والأخر المغاير بل وللعالم برمته ... ومن حمولة هذا الانتماء المتجذر، ومن حكمة التجربة وخبرة المراس وعمق الدرس والتكوين ... صاغت الموهبة وبراعة الصنعة وجودة الكتابة هذا الأديب الرفيع، الذي أمسى في الفكر المغربي والعربي المعاصر، منارة مضيئة مثيرة للتقدير والاهتمام.

ولا ريب في أن هذه القرابة التي تضمنا جميعا لترابطنا بألفة المكان هي التي تجعلني - أنا الذي ابتعدت عن اسفي زهاء الأربعين سنة - أحس، حين أتأمل بالذات بعض أعمال وفضاءات حكي ادمون عمران المليح، أوحين اقرأ إنتاجات بعض المبدعين الأسفيين، أنها تخصني، تخاطبي بلغتها

وأفكارها وشخوصها ... أوأنها كتبت لأجلي، أوكان علي أن أكتبها أنا، أوأني قد قمت بذلك فعلا، ومنذ أن بدأت أحبو على مدارج الكتابة وأنا في ريعان الصبا أواسط الستينات من القرن الذي مضى. وهكذا تشخص، أمام الذاكرة والرؤيا، مصا ريع أبواب بيوت عتيقة، والتواءات دروب وأزقة، وروانح بحر، وأضرحة وجوامع وزوايا ومقابر وبيع وكنائس، وملامح بحارة قدامى، وأسماء وجوه عرفتها هنا وهناك: في سيدي عبد الكريم، اشبار، الفخارة، باب الشعبة، لمريسة، سيدي أبوالذهب، قصر البحر، المغيتين، أولاد بن زميرو، بين السور، اجنان عيلان، السقالة، شارع الرباط، تراب الصيني، أرحاة الريح، أهرايات البيض، سيدي بوزيد، والقائمة طويلة ... أنتزع الآن من ذاكرة الزمان والمكان أسماء ألفت سماعها في جو عيشي عفوي مشترك: مايير، نسيم، لمعلم الطاهر، الدعباجي، البخاري، ميتيني، ماشو، ولد جودام، جاك، جيلي، للا زهرة، وزينة، وخديجة وطامو وأولكا، والخالة شميحة، ا وسميحة، (لا اذكر الاسم بالضبط) معالجة الأطفال، والتي ربما جعل الله في بركة يدها المداوية الرحيمة بعض الأسباب الخفية لبرئي وشفائي لأعيش وأواصل الحياة حتى الآن، فلله في خلقه حكم وعبر وشؤون . كان ذلك في أوائل خمسينات القرن الماضي وما تلاها ... وقد تبدلت بعد ذلك ظروف وتغيرت معالم وتوالت على الأمكنة والناس أحداث وأزمان، وتناوبت أحوال ومسرات وأهوال.

لقد كانت هذه السماء والوجوه التي أذكرها الآن بهذه المناسبة النادرة، وعلى اختلاف مهنها ومساكنها وأديانها وجذورها المدينية أوالقروية وانتماءاتها وخلفياتها الاجتماعية المتباينة ...، مشهدا أو معزوفة من سمفونية سكانية بمدينتنا اسفي، في مستهل وغضون الفترة المذكورة ، متناغمة المدارج والحلقات، هارمونيا اجتماعية ساحرة ميزت وما تزال فرادة وخصوصية وحضارة هذا المغرب الرائع الجميل.

لذا فإننا حينما نهب، في هذا المحفل البهيج، لنحتفي بكل الحب وصدق الطوية والنوايا، بهذا العلم الساطع المشع : ادمون

عمران المليح، فإننا لا نكرم فيه فردا واحدا – وإن كان فعلا يمتلك استحقاقية وجدارة هذا الاحتفاء - وإنما نكرم فيه، وبكل المعاني النقية الراقية الآنفة المدينة للوطن والأمة بكاملها . ذلك أن مثل هؤلاء الرجال الأفذاذ المميزين هم، بأفكارهم وأعمالهم وهاماتهم الكبيرة، نياشين شرف واعتزاز وفخار على صدور المجتمعات والشعوب.

بكل هذه الدلالات والأبعاد العميقة للتكريم نحتفل بالفرح بإدمون عمران المليح بيننا متألقا بهيا، مكبرين فيه الإنسان / المواطن المخلص الغيور، ورمزا لجيل الرواد المناضلين في بلدنا، والمثقف المليزم المنتصر دوما لقضايا وقيم ومبادئ الحق والخير والجمال، ولأنسنة مؤصلة سامية لمعاني ومسلكيات الحب والمودة والرحمة والتآخي والعيش المشترك بين الناس في سلم وتضامن وأمان...

وبهذه الصورة المشرقة لإدمون عمران المليح نريد أيضا أن نقدمه لأجيالنا الجديدة الصاعدة أنموذجا ومثالا في المواطنة والعمل والكفاح والعطاء، وإسوة حسنة قمينة بالاستلهام والاقتداء في كل خصالها الفكرية والإنسانية النبيلة الأصيلة التجدر والانتماء، المجافية لقيم ومسلكيات الرداءة والعقوق والانحلال...

لهذا استحثكم جميعا أيها الجمع الكريم لنقول بصوت واحد مخلص لإدمون عمران المليح : دامت لك مسرة الإبداع وبهجة التألق ومتعة الكتابة، رغم هواجسها وآلامها الجسام .. ودام لنا كلنا هذا الحب الكبير الذي نحمله في قلوبنا للمدينة والوطن، شعلة منيرة هادية تلم الشمل، تشحذ العزائم، توحد المطامح والجهود والنضال، وتدفعنا إلى أن نجعل من الخير، قيمة وفعالا، زاد الطريق والمقصد الأصيل للحياة.

إدمون عمران المليح كما عرفته.

الأستاذة : نورة بوقفطان*

أود قبل كل شيء أن أتقدم بالشكر والامتنان لجمعية حوض اسفي فرع الرباط على المبادرة الطيبة التي جعلتنا نلتف اليوم حول أبينا الروحي المبدع والكاتب الفذ السيد ايدمون عمران المليح، إنه بحق احتفاء وتكريم مستحقان، وعن جدارة لأسباب لا تخفى على الحاضرين، لكنني سأقف عند بعضها في هذه الورقة:

أولا، إيدمون عمران المليح هوابن مدينة اسفي التي شهدت مسقط رأسه سنة 1917 حيث ترعرع فيها إلى أن انتقلت العائلة إلى مدينة الصويرة وبعدها إلى مدينة الدار البيضاء، كما أنه من ابرز وجوهها الثقافية، نعم اسفي التي لم ينساها أستاذنا أبدا سواء في كتاباته أوأثناء تجاذبنا أطراف الحديث حولها، فيتحسر لكون المدينة لم تأخذ حظها من التنمية والاهتمام، بل لا زالت تئن تحت وطأة معاملها الكيماوية التي كانت وبالا على البشر والحجر، لذلك عندما كانت مؤسسة اديمون عمران المليح تضع برنامجه الثقافي منذ سنتين كانت اسفي ضمن هذا البرنامج على موعد مع اللقاء الذي خصته المؤسسة للحديث عن تاريخ اسفي بمشاركة عدة فعاليات ثقافية وجمعوية، وكان اللقاء رائعا والحديث شيقا عن خزف اسفي وتاريخه ويهود اسفي ومعجم أسماء أسماكها الطيبة وأصولها اللغوية ....الخ.

ثانيا : لأن ايدون عمران المليح يعتبر مكونا أساسيا واستثنائيا من مكونات الأدب والثقافة المغربيين، وهوبالتالي يحتل موقعا متميزا ليس داخل حدود الوطن فحسب بل خارجه.

---

* - نورة بوقفطان : أستاذة بالمدرسة العليا للأساتذة التقدم الرباط

واستثنائية اديمون عمران المليح كما لا يخفى على احد تنبع من كونه كاتبا مغربيا يهوديا يشجب الصهيونية منبها إلى مخاطرها بإنصاف الشعب الفلسطيني في موقف لا يقبل المسومة، وذلك في اكبر المحافل الدولية والوطنية، إلى جانب ذلك هويكتب باللغة الفرنسية معلنا حبه لها هذا الحب لا يضاهيه إلا عشقه للدارجة المغربية ذات الحضور القوي في كتاباته سواء في شكل مفردات أو تعابير ذات الحمولة الثقافية والاجتماعية العميقة.

وإذا كانت الفرنسية هي لغة الكتابة لذا ايدمون عمران المليح فهولا يتوانى عن شجب الفرنكوفونية ونبذها، مع العلم أن أعماله الروائية قد ترجمت عن آخرها إلى اللغة العربية.

في ظل هذه المعطيات كانت الشخصية المغربية وحتى لا أقول الهوية المغربية، بمكوناتها الثقافية والاجتماعية والسياسية بما فيها القضية الفلسطينية حاضرة بقوة في كتابات المليح الروائية.

كما هومعلوم كتب ايدمون عمران المليح رواياته خارج المغرب ابتداء من المجرى الثابت 1980 ثم أيلان أوليل الحكي 1983 وألف عام بيوم واحد 1986 وعودة أبوالحكي 1990 وأبوالنور 1995، هذه الروايات طفت على سطح الوجدان بكل تلقائية أثناء إقامته في فرنسا ما بين باريس ومنطقة (لومولان) المتواجدة في عمق الريف الفرنسي بمنطقة (بوركون)، هناك كتب - المغرب الباطني – على حد قول دانييال روندو وكأني به يفند المثل القائل " بعيد عن العين بعيد عن القلب" .

هذه النصوص بالإضافة إلى جماليتها السردية وأسلوبها المستعصي عن التناول قراءة وترجمة، تقدم للقارئ شهادة على تاريخ المغرب على التحولات الاجتماعية والثقافية مغرب التنوع والانسجام (يقول) في روايته ابنير أوأبوالنور ص 86 (   ).

قراءة النص:

من أعماق فرنسا تشرق الصورة، صورة اسفي المدينة الصغيرة التي عرفت تعايشا رائعا بين مختلف مكوناتها البشرية،

من مسلمين ويهود وامازيغ وأسبان وبرتغاليين، أول كنيسة إلى جانب البيع والجوامع، وأول سينما، فيضانات وادي الشعبة، أول مقهى وأول دكان عصري، الناس البسطاء والريحية التي تأخذ لونها من الطحال ... المدينة تعلن عن نفسها والمليح يؤكد " لم يفعل مقامي بالخارج سوى تقوية شعوري بالانتماء إلى هذا البلد" لذلك يصعب التمييز بين كتابة الرجل وحياته الآهلة بالأحداث والوجوه والأصوات والألوان، يقول المليح في مقالة بعنوان : حياة حكاية لا حكاية حياة " (ملاحظات حول السيرة الذاتية) من ترجمة الأستاذ محمد برادة:" لابد من أن نذكر بهذه الحقيقة الجوهرية لنفهمها وهي أن الذات تتكون في علاقتها مع الآخرين وما هوصحيح على الصعيد الفلسفي صحيح تماما وبكيفية ملموسة على الصعيد الأدبي، إنني لا شيء ولا أجد بالمعنى القوي للكلمة إذا لم تتدرج أيضا كائنات أخرى داخل مجال رؤيتي، وفي وصفة الكتابة ونظام الوجود الذي تؤسسه ... وإذا لم يتقاطع مجرى حياتي من اجل حبك نسيج واحد، وإنني إذا فشلت في أن أهبهم الحياة فذلك يعني محاولة مخطئة على الصعيد الإبداعي " ص، 7 .

تعج فضاءات روايات ايدمون عمران المليح بالأحداث والمواقف والأشياء العادية في حياتنا اليومية ... الدار البيضاء وأحداثها الدامية 1965 والصويرة بأسوارها التاريخية وصخب التجار على أرصفة ميناء أصيلة المدثرة ببياضها داخل أزقتها العتيقة وأناسها البسطاء، هناك حيث وقف الكاتب على قبر آخر يهودي يموت في أصيلة هذه المدينة البحرية الصغيرة قائلا (هذا اليهودي الأخير في أصيلة ولن يكون في مقدور اي يهودي أن يموت داخل هذا البياض أوأن يولد في هذا النور الظاهر).

إلى جانب هذه القيمة الإبداعية والثقافية هناك خصال الرجل الإنسانية الرفيعة منها قدرته على بناء جسور الصداقة، فأصدقاء المليح يمتدون من أعلى المراتب إلى ابسطها وكثيرا ما أكون برفقته فيتقدم للسلام عليه رجل أوامرأة، حارس عمارة أونادل في مقهى أومطعم أوبائع الجرائد أوحارس سيارات أوبائع الخضر ...الخ

يلتفت إلي مشيرا بيده إلى ذلك الشخص قائلا كنقدم إليك فلان راه صاحبي ...

في حركة تحث على وجوب الاحترام والتقدير لهذه الشخصية التي يقدمها لك، ايدمون عمران المليح، فألحظ بريقا يشع من عيني الشخص فرحا ممنونا، لأنه في هذا الزمان الذي طغى فيه حب المادة والمظاهر الزائفة، هناك إنسان عظيم يفخر بصداقته هذا الرجل البسيط التائه في دوامة الوجود الصعب.

كل يوم يزداد لدي الاقتناع بان الصداقة هي أيضا إحدى المواهب المتعددة لهذا المثقف الإنسان .

الأديب إدمون عمران المليح من خلال كتاب: الكتابة والهوية القاتلة للكاتب يحي بن الوليد

محمد بالـوز*

بمدينة أسفي المطلة على المحيط الأطلسي وفي المدينة القديمة حيث كانت تتعايش الأسر المسلمة واليهودية وحتى المسيحية ولد الكاتب والمفكر المغربي اليهودي ادمون عمران المليح 30 مارس سنة 1917م من أسرة مغربية يهودية كان استقرارها بمدينة الصويرة من أمد بعيد.

وقد قضى طفولته بمدينة أسفي صحبة والده الذي كان يشتغل ببيع الحبوب وتصديرها، وقد شهد أحداثا عرفتها مدينة أسفي لا تزال عالقة بدهنه كالقطار الذي كان يخترق شارع الرباط ليحمل الأتربة والحجارة إلى الرصيف الميناني الجديد الذي شهد كذلك وضع الحجر الأساسي له وهولا يزال طفلا صغيرا.

كما يتذكر الحالة العامة التي كانت عليها طوائف الزوايا ومواسمها وحفلاتها التي كانت تقيمها بمناسبة بعض الأعياد الدينية الإسلامية، وهويتذكر كيف كان موسم حمادشة يمر وسط المدينة بصخبه وبطقوسه الغريبة عن الإسلام، وكيف كان يطلب من اليهود عدم الخروج أثناء مرور هذه الطوائف حفاظا على أرواحهم وحتى لا يتعرضون لسوء من طرف هؤلاء الجهلة الذين تبرأ من أعمالهم جل الفقهاء المسلمين، ولكن سلطات الاحتلال كانت تشجع هذا النوع من الخرافات لحاجة في نفسها .

وادمون عمران المليح أصر على الحفاظ على هويته المغربية طول حياته رغم ثقافته الفرنسية، وهويختزل تراثا عميقا يتلبس فيه الثقافي المحلي المغربي اليهودي بالثقافي العالمي في أدق

* - أستاذ باحث في التاريخ الرباط.

تصوراته. وهوبذلك يكون له فرادة مخصوصة داخل حقل الثقافة المغربية بشكل عام.

هاجر المليح إلى فرنسا حيث استقر بباريس على اثر الأحداث الدامية التي عرفها المغرب سنة 1965 والمعروفة في التاريخ المغربي المعاصر بأحداث 23مارس 1965 والتي كانت الدار البيضاء مسرحا لها، استقر بباريس واشتغل بالصحافة حيث اصدر كتابا تناول فيه سيرته الذاتية تحت عنوان (المجرى الثابت) سنة 1980 ثم أضاف إليه كتابا آخر (ايلان أوليل الحكي) سنة 1983 ثم كتاب (ألف عام بيوم واحد) سنة 1986 وكتاب (عودة أبوالحكي) سنة 1990، هذه النصوص بالرغم من صعوبتها فقد ترجمت إلى اللغة العربية.

كما ساهم في التعريف بفن الرسم المغربي حيث اصدر كتاب (صباغة احمد الشرقاوي) سنة 1976 ثم كتابين آخرين كرسهما للفنان خليل لغريب (العين واليد) سنة 1993 و(رحلة الجير البحرية)، بالإضافة إلى مقالاته حول الرسامين المغاربة في مختلف المجلات الثقافية، كما ساهم إلى جانب المصور الفوتوغرافي احمد بن إسماعيل بكتاب تحت عنوان (نور الظل) سنة 2003 ويعني به سيدي سليمان الجزولي بمراكش، كما أنجز كتاب (الصويرة) سنة 2000.

كما أسهم في ما يسمى بالسرد المفتوح بكتاب (أم خليل لغريب) سنة 2002 ودار الشمع سنة 2005، وفي مجال النقد الأدبي والفلسفي أسهم بكتاب (المقهى الأزرق) سنة 1998 الذي يعالج فيه إشكالات اللغة والهوية والكتابة، أما في مجال القضية الفلسطينية وفي المنظور الذي لا يباعد بينها وبين المسالة اليهودية، أسهم فيها بمقالات كثيرة، ولاسيما مقاله الشهير يهود مغاربة ومغاربة يهود المنشور في مجلة الأزمنة الحديثة سنة 1977 .

أما آخر كتبه وهو(حوارات) سنة 2005 فهوعبارة عن مجموعة من الحوارات أجرتها معه الكاتبة الفرنسية (ماري رودونيه) على مدار زمني يزيد عن السنة، هذه الحوارات قائمة

على أسلوب الرصانة والدقة، إذ نشعر أننا بإزاء كتاب كاشف عن ادمون عمران المليح والمغرب في آن واحد، في وحدته المتنوعة، ولعل هذا ما يجعله في منأى عن التلقي المبسط أو التداول المتسرع، انه بدوره يفرض على القارئ فكرة مغامرة القراءة على غرار مغامرة الكتابة لدى الكاتب.

والكتاب يسعى إلى تقديم حوار شامل يعطي صورة واضحة عن ادمون عمران المليح الذي أكد على هوية الكاتب، إذ يعود بذاكرته إلى أيام الطفولة والشباب بأسفي ثم إلى النضال السياسي حيث انخرط في الحزب الشيوعي بدءا من سنة 1945 وبذلك يعتبر من المؤسسين لهذا الحزب حيث تحمل مسؤولية الكتابة في صحيفة الحزب (الأمل) تحت اسم مستعار هو(عيسى العبدي) وهذا الاسم يجعلنا نحس أن الرجل لا يزال متشبثا بمسقط رأسه أسفي عاصمة عبدة، لكن على اثر متغيرات محلية وعالمية سيقطع ادمون عمران المليح ارتباطه بالحزب الشيوعي الذي دام من سنة 1945 إلى سنة 1959، وتجدر الإشارة إلى أن التقاءه بالسيدة ماري سيسيل ديفور سنة 1959 سيكون حاسما على هذا المستوى.

وعلى الرغم من القطيعة المبكرة مع الحزب الشيوعي إلا أن ادمون عمران المليح لم ينج من الاعتقال على اثر حوادث الدار البيضاء الدامية 23 مارس 1965، ونتيجة لهذه العوامل سيقرر الرحيل إلى باريس رفقة زوجته ماري سيسيل من اجل حياة هادئة جديدة.

وأثناء إقامته بفرنسا ظل يتابع ما كان يجري في بلده المغرب الذي غادره مرغما، وكان يتحين الفرص لزيارة بلده المغرب وقد أتيحت له سنة 1975 من اجل المشاركة في أحد اللقاءات الثقافية بمدينة أصيلة التي سيصبح موسمها الثقافي موسما عالميا بفضل مجهودات أبنائها.

وقد ظل هاجس العودة يسيطر على عقل ادمون عمران المليح إلى بلده المغرب حتى يساهم في الحقل الثقافي المغربي وخصوصا في الأدب المغربي المكتوب بالفرنسية، وسيعود نهائيا إلى المغرب

سنة 1999، ويقر ادمون بان عودته كانت تحولا شاملا في حياته بل وتدشين لحياة جديدة.

وبعد هذه العودة سيتم الاهتمام به وطنيا ورسميا حيث سيستضيفه التلفزيون المغربي كاديب ومفكر مغربي كما سيتم توشيح صدره بوسام الاستحقاق الفكري الذي وشحه به ملك البلاد جلالة الملك محمد السادس نصره الله يوم الاثنين 16 فبراير 2004 بمدينة الصويرة التي يكن لها ادمون حبا كبيرا.

ونظرا لمكانته الفكرية وانتاجاته الأدبية التي يشيد فيها بأهمية مدينة أسفي مسقط رأسه، فقد عمدت فعاليات أسفي الثقافية بدعم من جمعية حوض أسفي بإقامة حفل تكريم لهذا المفكر المغربي الذي كرس شبابه لخدمة بلده المغرب سواء في نضاله النقابي في فترة الاستعمار الفرنسي للبلاد، أومن خلال تدريسه لمادة الفلسفة في المؤسسات التعليمية المغربية مكونا أجيالا من المثقفين المغاربة الذين لازالت تربطهم به علاقات الود والاحترام والتقدير .

حضر هذا الحفل ثلة من أبناء أسفي وبعض المفكرين والأدباء والفعاليات السياسية من مغاربة ويهود مغاربة، حيث ألقيت كلمات أشادت بالمحتفى به، كلها ثناء عليه وعلى ما كتبه عن المغرب وعن الثقافة المغربية سواء اللغة الفرنسية أوما ترجم له إلى اللغة العربية.

وفي كلمة موجزة منه عبر عن اغتباطه بهذا التكريم الذي أعاد له اعتباره كمفكر مغربي ينتمي إلى مدينة أسفي، تلك المدينة التي لازال قلبه متعلقا بها، يذكرها في مجريات حديثه عن الثقافة المغربية كحصن وقلعة رابضة على ضفاف المحيط الأطلسي الذي اكسبها سمعة وشهرة بفضل منجزات أبنائها على مختلف ميولاتهم الفكرية والسياسية والعقائدية.

الحبرا : كلمة عبرية تشير إلى الفئة التي تتكلف بالموتى من حيث الغسل والصلاة دون أي مقابل. Hebra

تقديم منشورات حول مدينة آسفي[1]

محمد بن الشيخ* .

في سياق العمل الدؤوب الذي تقوم به جمعية البحث والتوثيق والنشر للكشف عن مخزون منطقة اسفي الوثائقي والرصيد الفكري والثقافي، نشرت في سنتها هذه 2008 عملا وثائقيا من سلسلة ثلاثية تعتبر في اعتقادي ذات طابع خاص .

وقبل الدخول في التفاصيل أريد أن ابدأ أولا بالوصف البيبلوغرافي لهذه الثلاثية :

إنها تتكون من ثلاث وثائق متكاملة فكريا وكرونولوجيا :

الوثيقة الأولى بعنوان :اسفي زمن الحماية من خلال مذكرات عبد الرحمن بن الشيخ، وهي في 152 صفحة من الحجم المتوسط صادرة سنة 2008 عن جمعية البحث والنشر والتوثيق ، مع تقديم وتصدير وتعاليق عليها بقلم المؤلف، ثم بعض الصور والمستنسخات.....

الوثيقة الثانية بعنوان : اسفي من خلال جريدة العلم من سنة 1946 إلى سنة 1951 الجزء الأول، وهي في 125 صفحة من الحجم المتوسط مع تصدير وتقديم ومقدمة من طرف المؤلف .

الوثيقة الثالثة بعنوان: اسفي من خلال جريدة العلم من سنة 1951 الى 1956 وهي في 160 صفحة من الحجم المتوسط مع تصدير وتقديم ومقدمة من طرف المؤلف. لقد قلت عنها إنها وثائق ذات طابع خاص، بحيث يقتضي الحال ضرورة قراءتها كاملة لاسيما وإنها تتكامل وتتداخل بحيث تعطي القارئ في الأخير صورة واقعية وحية عن مجال خاص وعن مرحلة معينة، وهي تكتسي

---

[1]- يتعلق الأمر بمنشورات جمعية البحث والتوثيق والنشر لسنوات 2008/2007.

*- أستاذ باحث ومترجم، توفي يوم 4 نونبر 2008 ودفن في مقبرة سلا.

هذه الصفة أيضا كونها وثائق تنطلق من نوعية خاصة في الكتابة: كتابة عن واقع بطريقة غير مباشرة، والكاتب فيها أ والراوي إذا شئتم هوفي نفس الوقت فاعل في أحداثها ومنفعل بها .

ثم إنها وثائق تدور حول مرحلة تاريخية معينة وفيها سيلاحظ القارئ ذلك، حرص بين ملامسة الأحداث اليومية وهي في كامل طراوتها، مع ما يدخل في ذلك من السعي إلى تسجيل الانطباعات الشخصية، سواء كان ذلك في المذكرات أوفي المراسلات ذات الطابع الصحفي، وفي رأيي إنها كتابات ذات جمالية وإبداع بأسلوبها السهل الصادق وبالطابع النقدي والسجالي والساخر أحيانا ...

وكيفما كان الحال فإنها كتابات تهيمن عليها قضية المغرب المحتل بصفة عامة كما تتخللها بصفة خاصة تلكم التفاعلات التي كانت تحيط بقضية المغرب في أيام الحماية وفي السنوات القليلة بعد الحصول على الاستقلال.

ومن جملة ما يمكن استشفافه أيضا من خلال هذه الوثائق هي قدرة الحركة الوطنية آنذاك على التأطير وعلى تنظيم المواطنين وطرق النضال ومجابهة الاستعمار بمختلف الوسائل الممكنة ... وفي خضم هذا كله كانت الصحافة حاضرة وهي تعتمد على وسائلها المحدودة المتاحة في مواجهة مؤسسة الاستعمار ذات الإمكانات الضخمة، بحث عملت كما سيلاحظ القارئ على الفضح والجدال وتبادل الرأي بالرأي والحجة بالحجة...

إذن نحن بين أيدينا والحالة هذه عمل وثائقي يريد أن يرصد فترة تاريخية معينة من تاريخ مدينة اسفي، كما أننا نتعامل هنا مع عمل وثائقي يندرج في إطار البحث والتوثيق مخزون ذاكرة مدينة اسفي .

وعلى ذكر المدينة اسمحوا لي أن استطرد معكم قليلا في هذا الاشتغال على المدينة وفي أي إطار علمي يمكن أن يصنف.

نعم لقد أصبح الاهتمام بحاضر المدن وماضيها ومستقبلها يندرج في عصرنا الحديث ضمن تخصص علمي متعدد الأبعاد، بحث يشمل في طيه التاريخ والجغرافية والاقتصاد وعلم الاجتماع والثقافة.

وإذا كانت المدن في الماضي يشار إليها في إطار ما يعرف بالعمران حسب المفهوم الخلدوني، بحث إنها كانت في العهود الإسلامية توصف بكونها تارة إيالة السلطان حيث تمتد سلطاته ويسمع صيته ويدعى باسمه في خطب الجمعة وعلى منابر المساجد، كما كانت توصف بأنها حاضرة السلطان المحروسة حيث يعيش هو وعصبيته وجنده ورعيته ووزراؤه وشعراؤه وخدمه وصناعه .... وكانت إلى جانب هذا كله تسمى عند بعضهم ببيضة الإسلام التي يتولى السلطان حسب البيعة بحراستها وحمايتها من أطماع الأجانب الكفار.

وهكذا إلى أن جاء العصر الحديث حيث أضحى الاهتمام بالمدينة يدخل في إطار تخصص علمي جديد يشار إليه باسم التمدين أوالتعمير، وهوتخصص حديث يقول عنه الباحث المعماري بول بايروك: إذا أردنا أن نعطي تعريفا للتمدين فعلينا أن نربط بينه وبين تدبير المدن، وهوعبارة عن دراسات نسقية تنكب على المناهج التي تجعل من الممكن إحداث قدر من الموافقة بين سكنى الناس وبين حاجياتهم اليومية ومتطلباتهم المادية والمعنوية .

أما العالم العمراني بارديت فيعتقد وبشكل أكثر تباينا عما سبق بأن تدبير المدن هو اليوم عبارة عن مجموعة من التخصصات، فهو علم يهتم بمعرفة الأشياء وبالاستناد على تحليل دقيق، وانطلاقا من هذه القاعدة إنه يمكن اعتباره فنا تطبيقيا يتجاوز ما هونظري نحوالمجالات التطبيقية وذلك في ترابط مع القيم الإنسانية في شموليتها أي تدبير المدن هوفلسفة في جوهره.

أما المعماري بروست فيشير إلى أن صيغة تدبير المدن قد تولدت في سنة 1912 عند عدد من المعماريين والمهندسين، وفي هذه الفترة كان هذا النشاط يحتل عند اليوطي -الذي كان مقيما عاما

بالمغرب في فترة بداية الاحتلال الفرنسي للمغرب - مركز الدائرة في إطار الطروحات الكبرى المعنية بتهيئة المدن، وكان ذلك في شمال أفريقيا بالضبط وفي دول أفريقيا المستعمرة، ويعتبر المغرب في هذا السياق، الدولة الأهم التي تبوأت مركز الصدارة في هذا الشأن حسب بروست دائما.

أيها السادة والسيدات، لقد أوردت هذه التعريفات لكي اقترح على جمعيتنا أن يكون الاهتمام بمدينتنا اسفي وبغيرها من المدن انطلاقا من هذا المفهوم الحديث الذي يدخل في اعتباره مختلف الجوانب الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والبيئة والحاجيات الأساسية التي توفر شروط الحياة الكريمة للإنسان، وهنا بالخصوص وان العالم اليوم قد أصبح يعايش طفرة في البحوث العلمية المختصة المعنية بهذا القطاع، وأن الأمم المتحدة من جهتها قد خصت الإسكان ببرنامج خاص يعرف ببرنامج الأمم المتحدة للإسكان يحاول أن يتجاوز ذلك المفهوم الضيق للمدن باعتبارها تجمعات سكانية وبنيات تحتية وخدمات وكفى.

وبالعودة إلى هذه الوثائق الثلاث، انصح بقراءتها لما في ذلك من متعة استحضار الماضي والصور والوقائع، واليكم هذا المثال الذي اقترحه للتأمل: ففي صفحة 103 من الوثيقة الثانية (اسفي من خلال جريدة العالم 1946الى 1951) وفي الباب السادس حول مادة انتشار التعليم ومضايقات سلطات الاحتلال نقرأ ما يلي : العلم عدد 854 الجمعة 17 يونيه 1949 ص 5 :

اسفي: الهداية الإسلامية، نتائج امتحان الشهادة الابتدائية العربية في اسفي، عدد المرشحين 20 الناجحون 13 ومنهم: احمد بن محمد الخزامي، ابوزيد بن عبد الرحمن الشقوري، عبد الله بن المامون الغنيمي، عبد الرحيم بن احمد الشايفي، عبد الرحيم بن احمد الوزاني، عبد الرحمن بن علال بن الشيخ، عبد الواحد الريكوش، عمر بن عبد السلام الشقوري، علال بن احمد الواصلي، فاطمة بنت احمد الولادي، حسن بن علال الشرادي، عبد الله بن محمد السكوري .

وهؤلاء من توفاهم الله تعالى ومنهم من اعرفهم معرفة شخصية وعائلية، ومن من أصبح برلمانيا ومن فعاليات اسفي المعروفة، ومنهم من درسني شخصيا بالابتدائي أو بالإعدادي، واترك لكم صلاحية التعليق .

وهذا مثال آخر من الجزء الثاني هذه المرة ودائما في تيمة التعليم يقول الخير في صفحة 145 بعنوان اسفي الدورة الثانية لشهادة الدروس الابتدائية العربية، وهومؤرخ بيوم 27 أكتوبر 1951: مدرسة الهداية الإسلامية تقدم 44 تلميذا نجح منهم 33 كالتالي: حورية المصباحية، حليمة البواب، حبيبة الوزاني، خديجة الشيخ، السلوي خديجة، خديجة الحمري، ربيعة الدمني، ربيعة بن جدة، زبيدة كوار، زبيدة السهلاوي، شامة واعزيز، فاطمة الصديقي، فاطمة عباس، فاطمة عبد الله، مليكة علان، زهراء الدمني .

والفتيان وفيهم: عبد الله الولادي، عبد الحق البوفي، محمد السوسي، محمد الهداجي، محمد الشياظمي، محمد الغنبوري، وآخرون .

ولقد كانت أختي من بينهم، وكانت الشهادة الابتدائية في تلك الأيام تحمل عدة توقيعات للمسؤولين ومن بينهم قاضي المدينة هوأيضا.

والظاهر أن الشهادة كان لها شأن وألف شان، أما اليوم فقد كثرت الشهادات وقلت البركة

هذان المثالان يدلان على الدور الذي ساهم به التعليم الحر في تعليم وتنوير وتكوين أبناء وبنات المغاربة في فترة عصيبة من تاريخ المغرب.

بقيت عندي كلمة أريد أن اقولها في حق مؤلف هذه الوثائق الأستاذ الباحث محمد بالوز شكرا جزيلا أخي محمد لقد جعلتني اشعر بالاعتزاز بكوني انتمي إلى هذه المدينة، والسلام.
الرباط في 2008/6/27: محمد بن الشيخ .

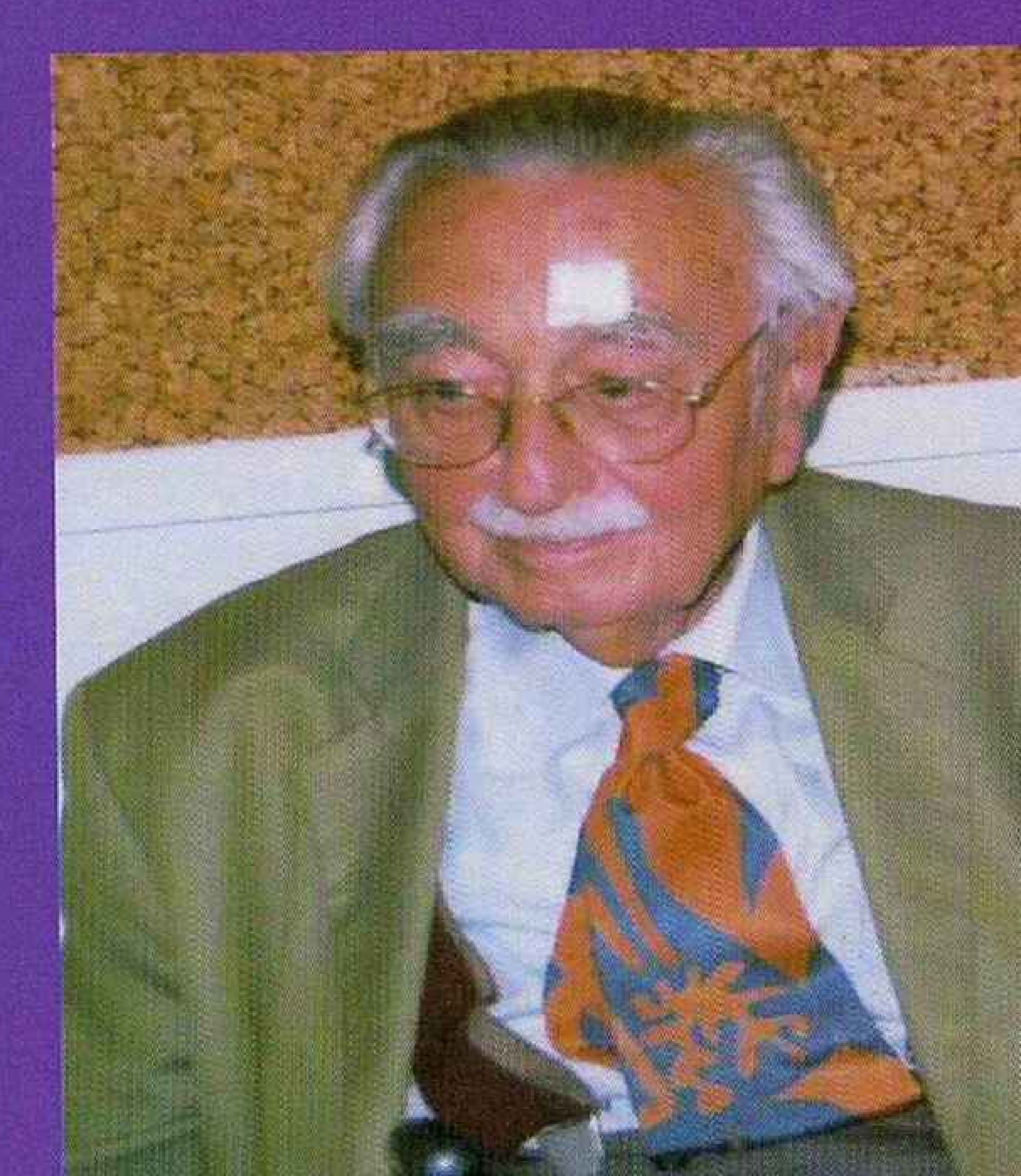
فهرس



ليلى انحايلة

أستاذة التعليم الثانوي التأهيلي، حاصلة على دبلوم الماستر (التاريخ الحديث والمعاصر) بكلية الآداب والعلوم الإنسانية المحمدية.

من اهتماماتها العلمية البحث في تاريخ يهود المغرب، والتاريخ الجهوي.



ضمن الكتاب وقائع حفل تكريم
الأديب إدمون عمران المليح
يوم 27 / 6 / 2008
بكلية علوم التربية الرباط.

CTP & Impression : Imprimerie Rabat Net Maroc